دراسات:

أضواء على: نزهة الألباب في الألقاب للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢ هـ)

تحقيق

عبدالعزيز بن محمد بن صالح السديدي

محمد عبدالرحمن الأهدل

أستاذ مساعد بكلية التربية - الطائف

جامعة أم القرى

ابن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) / نزهة الألباب في الألقاب للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)؛ تحقيق عبدالعزيز بن محمد صالح السديدي .- الرياض : مكتبة الرشد ، ١٤٠٩هـ .

الحمد لله حمد الملهم الصواب، ومحصى كل شيء في كتاب، وصلاة وسلاماً على المعصوم من الزلل، والمنزه عن الخطل، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه ما اقتطف باحث أزاهير المعارف من رياض الأسفار .

وبعد؛ فإن نزهة الألباب في الألقاب للحافظ ابن حجر العسقلاني أجمع كتاب في بابه ، بطين إذا قورن بأترابه، لذلك تطلعت إليه أعين الباحثين وكنت اقتنيت منه صورة خطية بقلم المؤلف نفسه، وعليها تعليقات وحواشٍ في الصفحة الأخيرة لأئمة مشهورين . كالسخاوي والخيضري وغيرهما .

وحين برز الكتاب إلى عالم المطبوعات محققاً، تلقفته فرحاً، وسعدت باقتنائه وفقهت بعد تمعني في مقدمته أن محققه السديدي اعتمد على الأصل المذكور، واستظهر بنسخ أخرى تعينه على حل كتابة الحافظ، إذ هي خلية عن الإعجام غالباً وقد بدد نظامها تداخل الأسطر، وتعدد الحواشي والإلحاقات .

وحين زف المحقق إلينا هذا السفر يرفل في ثياب التحقيق، ألفيت المحقق قد بذل جهداً مشكوراً، ووضع الهناء على النقب في معظم الأماكن .

بيد أن هناك نصوصاً محدودة سرى في جسمها داء التحريف، وعصفت بها ريح التصحيف فرأيت إتماماً للفائدة التنبيه على هذه المواطن، وهي قسمان .

الأول : تصحيفات الألقاب والأعلام .

الثاني : قصور في التحقيق في أماكن .

وما الهدف إلا خدمة تراثنا، وتنقيته من الشوائب . ومنه سبحانه أستمد العون .

* في (٧٩/١) رقم (١٥٠) قال (١) :

«الأصقح بالقاف اسمه مالك بن عامر بن نمير بن عامر بن صعصعة في الجاهلية» ولم يذكر مصدراً له .

قلت نص ابن ماكولا في الإكمال(٢) على أنه بالقاف والعين المهملة "الأصقع" وهو كذلك بالعين بخط الحافظ ابن حجر واضحاً (٣) مجوداً في نزهته .

* وفي (٩١/١) رقم (٢٢٧) قال :

«الأغصَف : هو عمرو بن الوليد القاضي» . ولم يحرك القلم لتحقيقه .

قلت : هو بالضاد والغين المعجمتين كما في الجرح والتعديل (٤) والميزان (٥) ولسانه (٦) .

وجاء في لسان العرب (٧) «أن كل متثن متكسر مسترخ فهو أغضف»

* وفي (١٢٢/١) رقم (٣٨٢) .

«البستانيان : هو الحسين بن يزيد الدينوري»

قلت : كذا رسمه المحقق، ولم يعنَ بضبطه، ولم يوضح معناه.

وكذلك هو بخط الحافظ بدون إعجام .

وإنما هو «البُسْتانْبان» بالباء الموحدة .

قال في اللباب (٨) «البستنبان بضم الباء الموحدة،

وسكون السين المهملة، وفتح التاء المثناة من فوق وسكون النون وفتح الباء الموحدة وفي آخرها النون بعد الألف، هذه الكلمة تقال لبستان بان يعني الذي يحفظ البستان والكرم، وعرف بها جماعة» .

* وفي (٢٠٨/١) رقم (٧٦٨) قال الحافظ :

"حمار القرا" هو أبو بكر إلى آخره . سكت عليه المحقق.

قلت صحيحه : "حمار القراء" انظر غاية النهاية (٩)، وقد قال المحقق في مقدمته (١٠) بأن ما سكت عنه فهو مما لم يعثر على ترجمة له (١١) .

* وقال : في (٣٠٢/١) رقم (١٢٠٤) .

«ذو قَرَيَات» اسمه جابر بن أزد ...» أهمل تحقيقه، فوقع في التصحيف .

قلت : إنما هو بالنون "ذو قـرنات" وكـذلك هو بخط الحافظ (١٢) مجوداً، وهو الموافق لما في الإكمال (١٣) والجرح (١٤) وتاريخ البخاري (١٥) :

"بن آزاد" بالمد والذال المعجمة بخط الحافظ، انظر المصادر الثلاثة .

* وقال في (٢٩٣/١) رقم (١١٧٠) .

«ذو السَّبَّابة هو خالد بن عوف بن نضلة جاهلي» .

قلت : إنما هو ذو السَّبَلَة كما في الاشتقاق (١٦) ، والقاموس (١٧) .

قال الفيروزابادي : «والسَّبَلَةُ محركة الدائرة في وسط الشفة العليا أو ما على الشارب من الشعر أو طرفه أو مجتمع الشاربين أو ما على الذقن إلى طرف اللحية كلها، أو مقدمها خاصة» .

* وقال :

«ذو كُبَار اسمه عمار بن عمر الهمداني الكوفي شاعر ماجن في زمن بني أمية» (٣٠٤/١) رقم (١٢١٢) .

قلت : صحيحه «ذو كناز» بالنون والزاي، وهو كذلك بخط الحافظ بالنون في الحاشية (١٨) . ابن عمرو بخطه أيضاً .

قلت : وهو موافق لما في الأغاني (١٩)

وروى الجمحي في طبقات فحول الشعراء (٢٠) للفرزدق:

«من يأت عماراً ويشرب شربة
يدع الصيام ولا تصلي الأربع»

قال شارحها : «عسى أن يكون هو ذو كناز» .

* وفي (٣٠٠/١) رقم (١١٩٩) .

«ذو الخَلَصَة : حرملة بن عبدالله بن سعد جاهلي» .

قلت : إنما هو «ذو الغَلْصَـمَـة» لقب بذلك لعظم غلصمته، وهي اللحمة بين الرأس والعنق .

وهو العجلي فارس شاعر . ترتيب القاموس (٢١) .

* وقال في (٣٠٧/١) رقم (١٢٢٠) .

«ذو الكعبة»

وصحيحه (ذو الكعب) كما في تاج العروس (٢٢) وكذلك هو بخط الحافظ (٢٣) .

* وقال : في (٩٦/١) رقم (٢٥٤) .

«الأقطع : دُهَيْر روى عن ابن عيينة» . وأهمل تحقيقه فوقع في الخطأ .

قلت: دهير بالدال المهملة هكذا ضبطه في الإكمال (٢٤).

ووقع في تاريخ البخاري الكبير (٢٥٧/١/٢) دُهَيْن بنون في آخره؛ قال في الجرح (٢٥) : «روى عن ابن سيرين، وعنه سفيان بن عيينة، ثم روى عن ابن عيينة قال : كان دهير الأقطع سائلاً يسأل وكان منكر العينين» .

والخطأ الذي وقع فيه المحقق قوله «روى عن ابن عيينة» .

والصحيح ما أثبته الحافظ بخطه ل (١٣) «روى عنه ابن عيينة» وانظر مسائل الإمام أحمد (٢٦) .

ومن تصحيفات الأسماء والنصوص أيضاً :

* من (٣٧/١) قال : «الأبّار : عمر بن حفص» .

قلت : إنما هو «عمر أبو حفص» وكذا هو بخط المؤلف (٢٧) .

ولم يشر إلى من ترجمه لأنه تصحف عليه فجهل موضع ترجمته .

وهو أبو حفص عمر بن عبدالرحمن الأبار قال الحافظ في التقريب (٥٩/٢) :

«صدوق وكان يحفظ وقد عمي»، وانظر تهذيب التهذيب (٢٨) .

وقال : رقم (٤١٣) - «بقرة يونس المصري اسمه إدريس بن الأسود التجيبي» .

قلت : بخط المؤلف ل (١٨) إنما هو «محمد بن إدريس ابن الأسود» .

* وقال : رقم (٢٦٥) (١/٩٨) .

«أمير هو أبو بكر محمد بن علي بن الحسين الجوزداني». علق عليه قائلاً : ترجم له السمعاني (٣/٤٠١ - ٤٠٢) وله ترجمة في معجم البلدان (٢/١٨٣) .

قلت : لو أمعن النظر في المصدرين المذكورين لعلم أنه سقط «بن أحمد» بين علي والحسين، وكان اللازم أن يشير إلى ذلك؛ لأن هذا من فوائد التحقيق، وانظر أيضًا اللباب (٢٩) ، وغاية النهاية (٣٠).

وقال : رقم (٥٢٨) (١/١٥٣) «(ثامر) بن مسعود بن مطلق ممن أجاز للحجاز» .

قلت : الصحيح «للحجار» بحاء فجيم مشددة، وثامر أهمل المحقق الكلام عليه : وهو الربعي البغدادي أبو المظفر توفي سنة (٦٣٤هـ) انظر التكملة للمنذري (٣١) .

* وقال في (١/٢٦٢) رقم (١٠٤٢) .

«(الدعّاء)محمد بن الحسين بن زاهر العطائفي» .

وقد أهمل المحقق الكلام عليه :

قلت : فيه ثلاثة تصحيفات معصوبة برأس المحقق .

١ - قال «بن الحسين» وإنما هو «بن الحسن» .

٢ - قال «بن زاهر» وصحيحه «بن أزهر» .

٣ - وقال «العطائفي» وإنما هو «القطائعي» .

ويكنى أبا بكر، اتهمه أبو بكر الخطيب بوضع الحديث، قال: وكان غير ثقة، وقال الذهبي : «ويغلب على ظني أنه هو الذي وضع كتاب الحيدة فإني لأستبعد وقوعها جداً» .

قلت «الحيدة » كتاب ينسب إلى الشيخ عبدالعزيز بن يحيى الكناني المكي، وهو مطبوع متداول .

انظر تاريخ بغداد (٣٢)، والميزان (٣٣) .

* وفي (١/٢٨٢) رقم (١١٢٥) مادة «ذو التاج» . قال : «وهلال بن خالد بن صخر السلمي» .

سكت عنه المحقق : قلت في جمهرة أنساب العرب (٣٤) «مالك بن خالد بن صخر ذو التاج قتله عبدالله بن جذل الطعان الكناني»، ونحوه في القاموس وتاج العروس (٣٥) .

* وفي (١/٢٩٤) رقم (١١٧٥) «ذو السهمين هو حرب بن الحارث بن عوف بن كعب جاهلي» .

لم يعلق عليه المحقق .

قلت : بل هو «كرز بن الحارث» وهو الليثي : وهو كذلك بخط المؤلف (٣٦)، وانظر ترتيب القاموس (٣٧) .

* وفي (١/٧٢) رقم (١٠٣) قال :

«الأسعر : يزيد بن عمران الجعفي» .

هكذا رسمه المحقق، ولم يعلق عليه . وعليه مأخذان .

١ - قال : يزيد، وإنما هو مرثد .

٢ - قال : بن عمران ، وإنما هو ابن [أبي] حمران شاعر وفارس مشهور واسم أبي حمران الحارث وهو ابن معاوية الجعفي، لقب الأسعر لقوله :

فلا يدعني قومي لسعد بن مالك
إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

وفي الإكمال (٣٨) «مرثد بن حمران» كنيته أبو حمران. وانظر المؤتلف (٣٩) وتاج العروس (٤٠) .

وفي نسخة الحافظ بخطه ل (٩) موافق لما في الإكمال.

* وفي (١/٢٤٢) رقم (٩٥٤) قال :

«خضير : هو مصعب بن الزبير بن العوام» .

قلت : إنما هو «مصعب بن مصعب» كان مصعب آدم فسمي خضيراً، ولد بعد مقتل أبيه فسمي به .

وكذلك هو بخط الحافظ (٤١) «مصعب بن مصعب» .

وانظر الإكمال (٤٢) .

* وفي (١/٢٧٥) رقم (١٠٩٥) قال :

«ومن بشر حاف تداركن ذالقا

عمارة عبسي بعد ما جنح العصر»

قلت: بخط المؤلف ل (٣٦) «عمارة عبس» بدون ياء وبه يستقيم الوزن وانظر ديوان الفرزدق [٤٣].

* وفي (١/٦٨) رقم (٨٣).

«الأخوص: بالخاء المعجمة والصاد المهملة هو زيد بن عمر بن قيس التميمي ذكره المرزباني».

أفاد المحقق بأنه لم يجده في معجم المرزباني: وصمت قلمه.

قلت: إنما هو زيد بن عمرو، وكذلك هو بخط المؤلف ل (٩). وهو شاعر إسلامي فارس، له في كتاب بني يربوع أشعار جياد، وهو القائل:

وكنت إذا ما باب ملك قرعته

قرعت بآباء ذوي شرف ضخم

بأبناء عتاب وكان أبوهم

إلى الشرق الأعلا بآبائه ينمي

انظر: جمهرة أنساب العرب [٤٤]، والمؤتلف [٤٥].

* وفي (١/٩٩) رقم (٢٧٥) ذكر قول الحطيئة:

«قوم هم الأنف والأذناب غيرهم

ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا»

لم يخرج البيت:

وهو في ديوان الحطيئة [٤٦] «ومن يسوى» وكذلك في لسان العرب [٤٧] والتاج [٤٨].

* وفي (١/٢٧٠) رقم (٧٦١) قال الحافظ:

«حماد ربه هو الأسود بن سريع الصحابي قاله أحمد في الزهد: ثنا عبدالصمد ثنا عمران ...إلخ».

قلت: الصحيح «قال: أحمد: بدون هاء وإلا فسد المعنى.

* وفي (١/٢٦١) رقم (١٠٣٥).

«دريود بالتصغير: محمد بن أصبع القرطبي النحوي».

قلت: إنما هو «بن أصبغ» بالغين المعجمة كما في بغية الوعاة [٤٩].

القسم الثاني: مواطن القصور في التحقيق

* قال الحافظ في (١/٢٤٤) رقم (٩٦٦) من مادة الخف.

«والآخر أبو طالب محمد بن علي النديم له شعر ذكره خميس الحوزي في أسئلة السلفي».

قال المحقق ح (٨) إنه لم يعثر على ترجمة أبي طالب في أسئلة السلفي.

قلت: بل هو مذكور هناك بكنيته [٥٠] ونصه:

قال خميس وسألته عن أبي طالب الرامي فقال: كان من أولاد الرؤساء نبغ في الشعر - إلى أن قال - أنشدنا لنفسه:

لما خلت واسط ممن ألوذ به

ولم أجد من يراعي حرمة الأدب

خرجت منها إلى الرستاق منتقلا

تنقل الشيخ من ضعف إلى عطب

* وقال الحافظ: كما في (١/٢٧٠) رقم (١٠٨٥).

«ديباجة الحرم: هي فلانة بنت خالد بن أسيد بن العاص الأموية».

قال المحقق لم يعثر عليها.

قلت: لها ذكر وخبر في الأغاني (١٩/١٥٦ - ١٥٧) ط الهيئة المصرية.

وفيها يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ذهبت ولم تلمم بديباجة الحرم

وقد كنت منها في عناء وفي سقم

* وكم موطن يشير الحافظ إلى مصدر ترجمة العلم، فلا يرجع المحقق إليه.

* ففي (١/٩٢) رقم (٢٣٤). مادة «الأفرم»

«محمد بن علي المسيلي من شعراء الخريدة».

فقال المحقق: «له ترجمة في معجم ألقاب الشعراء».

قلت: هذا المعجم كتاب لأحد المعاصرين، وكان الأولى الرجوع إلى الخريدة أولاً، وهي خريدة القصر [٥١].

* وقال الحافظ في (١/١٣٤). رقم (٤٥٢)

«والحسين بن يوسف بندار - روى عنه ابن عدي في الكامل»

قلت : لم يرجع المحقق إلى الكامل، وهو مذكور في (٧١٠/٢) .

* وقال المحقق في (٣٨/١) معلقًا على قول الحافظ «بأن الأبار صاحب التكملة توفي سنة ثلاثين وستمائة»

قال ح (٤) «له ترجمة في شذرات الذهب (٢٩٥/٥) وفوات الوفيات لابن شاكر (٤٥٠/٢) .

قلت : لو أمعن النظر في هذين المصدرين لعلم أن وفاته فيهما سنة ثمان وخمسين وستمائة، وهو يوافق ما في العبر (٥٢) . ونفح الطيب (٥٣) .

فكان على المحقق التنبيه على ذلك .

* وقال الحافظ (١٤٥/١) رقم (٥٠٢) من مادة «التُّرك» «محمد بن علي بن حرب المروزي»

قال المحقق : ح (٣) ما نصه : «الذي في الإكمال (٢٤٩/١) والتبصير (٧٨/١) وغاية النهاية (١٨٧/١) يلقب الترك هو محمد بن حرب المقرئ، فلا أدري هل هو هذا أو غيره» .

قلت : استشكل ماليس بمشكل، واحتار فيما ليس بمعضل، ولو راجع التقريب (٥٤) مثلاً لانقشعت سحابة الشك ، فقد قال الحافظ فيه :

«محمد بن علي بن حرب المروزي المعروف بالترك بضم المثناة وسكون الراء، وقد ينسب إلى جده ثقة من الحادية عشرة » .

ونحوه في تهذيب التهذيب (٣٤٩/٩) وغيرهما .

* وفي (١٤٩/١) رقم (٥٢٤) قال الحافظ :

«تويت : شاعر مقل من أهل اليمامة اسمه عبدالملك بن عبدالعزيز ذكره في الأغاني» .

ولم يرجع المحقق إلى المصدر .

قلت : هو السلولي من الشعراء الفصحاء ، الذين لم يقفوا على الخلفاء، ولا مدحوا الأمراء، توفي في حدود المائة : الأغاني (٥٥) .

* وفي (٦٢/١) رقم (٥٥) مادة الأحنف .

«عقيل بن محمد العكبراوي» لم يترجمه .

قلت : هو أبو الحسن كان أديبًا، وصفه الثعالبي بشاعر المكدين وظريفهم توفي سنة (٣٨٥) .

انظر : المنتظم (٥٦) ، ويتيمة الدهر (٥٧) .

* وفي (٩٤/١) رقم (٢٤٤) من مادة الأفقم .

«وموسى بن الحكم بن حماد ... أحد مشايخ أبي الحسين بن جميع في معجمه» .

لم يرجع المحقق إلى المصدر المذكور، ولو فعل لوجده في المعجم (٥٨) .

* ورقم (٤٥٦) قال الحافظ :

«الحسين بن يوسف بندار : روى عنه ابن عدي في الكامل». لم يرجع إليه المحقق .

قلت : هو في الكامل (٥٩) .

* وقال الحافظ كما في (٨٦/١) رقم (١٩٣) .

«وأما أعشى بني حجونة وأعشى بني شيبان وأعشى طرود فثلاثة شعراء لا أعرف أسماءهم» .

قلت : لم يكلف المحقق نفسه عناء البحث عنهم فأهمل ذكر مصادرهم وقد تحصل لي بعد البحث ما يلي :

أما أعشى بني حجونة، فلعله طلحة بن معروف أخو الكميت بن معروف الأصغر فإن لقبه الأعشى، ويتصل نسبه بحجوان بن فقعس كما في المؤتلف (٦٠). وأما أعشى بني شيبان، فإن له ذكرًا وشعرًا في البيان والتبيين (٦١)، وطبقات فحول الشعراء (٤٤٠/١) وأنساب الأشراف (١٦٩/٥) .

وأما أعشى طرود : فاسمه إياس بن عامر بن سليم ابن عامر الطرودي أبو الخطاب، كان ناسكًا صاحب زهد وورع ثم عمي بعد .

انظر : عيون الأخبار (٦٢)، والمؤتلف (٦٣) ، وخزانة البغدادي (٦٤) .

ومن جميل شعر أعشى بني شيبان قوله :

وما أنا في أمري ولا في خليقتي
بمهتضم حقي ولا قارع سني
ولا مسلم مولاي من شر ما جنى
ولا خائف مولاي من شر ما أجني

وإن فواداً بين جنبيّ عالم
بما أبصرت عيني وما سمعت أذني

* ومن مادة البطين (١٢٥/١) رقم (٤٠٠)

«الحسين بن سعيد الجهني البصري عن زيد بن أسلم يقال له البطين أيضًا» .

سكت عنه المحقق .

قلت : له ترجمة في الجرح والتعديل (٥٣/٣) وفيه «سعد» بدل «سعيد» إلا أنه بالياء واضحًا بخط الحافظ في النزهة .

* وفي (١٢٥/١) رقم (٤٠١) قال :

"البطين أيضًا لقب به عليُّ بن أبي طالب بعض الناس فكان يقول فيه الأصلع البطين».

سكت عنه المحقق، وأخطأ في الضبط، إذ جعل عليًا الفاعل. وبعض المفعول، فأفسد المعنى المقصود.

قلت : بل الصحيح العكس : فقد جاء في الرياض النضرة (٦٥) في حلية علي «أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه» .

وفي تاج العروس (٦٦) «الأنزع البطين أي العظيم البطن».

وقال في الروض الأنف (٦٧) :

«وقال بعض اللصوص حين فر من سجنه – أي من سجن علي رضي الله عنه :

ولو أني مكثت لهم قليلاً
لجروني إلى شيخ بطين»

وبهذا انتهى ما أردت ذكره من الملاحظات والتنبيهات .

الحواشي والمراجع *

١ – الضمير يعود على الحافظ ابن حجر في النزهة .

٢ – ابن ماكولا : الإكمال (٩٧/١) ط . مجلس دائرة المعارف؛ الهند : تحقيق المعلمي اليماني .

٣ – ابن حجر : نزهة الألباب ل (١٠) مخطوط مصور .

٤ – ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل (٢٦٦/٦) ط . دار الكتب العلمية – بيروت .

٥ – الذهبي : ميزان الاعتدال (٢٩٢/٣) تحقيق البجاوي ط . دار المعرفة – بيروت .

٦ – ابن حجر : لسان الميزان (٣٧٨/٤) ط . دار الفكر – بيروت .

٧ – ابن منظور : لسان العرب المحيط (٢٦٧/٩) ط . دار الفكر – بيروت .

٨ – ابن الجزري : اللباب : في تهذيب الأنساب (١٥٠/١) ط . دار صادر – بيروت .

٩ – ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء (٤٦٣/١) ط . مكتبة الخانجي – مصر .

١٠– انظر مقدمة نزهة الألباب .

١١– لقد عثرت على كثير من تراجم أعلام أهمل ذكرهم ، أضربت عن ذكرها لوفرتها .

١٢– ابن حجر : نزهة الألباب خ ل (٣٩) .

١٣– ابن ماكولا : الإكمال (٥١/١ – ٥٢). م .

١٤– ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل ١/٢ رقم (٢٠٥٠). م.

١٥– البخاري : التاريخ الكبير ٢/١ رقم (٢١٩٧) ط . حيدر آباد دكن الهند ١٣٦٠هـ .

١٦– ابن دريد : الاشتقاق (ص ٥٠٤) تحقيق عبدالسلام هارون، مطبعة السنة المحمدية .

١٧– الفيروز ابادي والزواوي : ترتيب القاموس (٥١٥/٢) ط . دار الكتب العلمية – بيروت .

١٨– ابن حجر : نزهة الألباب خ ل (٤٠) – مصورة .

١٩– الأصفهاني : الأغاني : (١٢٤/٦) (١٧٤/٢٠–١٨٠) ط . الساسي .

٢٠– الجمحي : طبقات فحول الشعراء (٣٦٠/١) شرح محمود شاكر؛ ط . المدني – القاهرة .

٢١– الفيروزابادى والزواوي: ترتيب القاموس (٤١٠/٣). م.

٢٢– الزبيدي : تاج العروس (٥/٩) ط . المطبعة الخيرية – مصر ١٣٠٦هـ .

٢٣- ابن حجر : نزهة الألباب ل (٤٠) خ . م .
٢٤- ابن ماكولا : الإكمال (٣٤٠/٣) . م .
٢٥- ابن أبي حاتم : الجرح والتعديل (٤٤٥/١/٢) . م .
٢٦- الإمام أحمد : العلل ومعرفة الرجال (٩٤/١) تحقيق وحي الله ؛ ط . الأولى - المكتب الإسلامي .
٢٧- ابن حجر : نزهة الألباب خ (٥) .
٢٨- ابن حجر : تهذيب التهذيب (٤٧٣/٧) ط . دار صادر - بيروت .
٢٩- ابن الجزري : اللباب في تهذيب الأنساب (٣٠٨/١) . م.
٣٠- ابن الجزري : غاية النهاية (١٩٨/٢) . م .
٣١- المنذري : التكملة : لوفيات النقلة (٤٣١/٣) ط . مؤسسة الرسالة تحقيق بشار .
٣٢- الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد (١١٣/٢) ط . دار الكتاب العربي - بيروت .
٣٣- الذهبي : ميزان الاعتدال (١٢٨/٥) - تحقيق البجاوي؛ ط . دار المعرفة - بيروت .
٣٤- ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (ص ٤٦١) ط . دار المعارف - مصر .
٣٥- الزبيدي : تاج العروس (١٢/٢) . م .
٣٦- ابن حجر : نزهة الألباب ل (٣٨) مصورة .
٣٧- الفيروزابادي والزاوي : ترتيب القاموس (٦٤٠/٢) . م .
٣٨- ابن ماكولا : الإكمال (٨٦/١) . م .
٣٩- الآمدي : المؤتلف والمختلف (ص ٤٧) ط . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .
٤٠- الزبيدي : تاج العروس (٢٦٨/٣) . م .
٤١- ابن حجر : نزهة الألباب : خ ل (٣٢) . م .
٤٢- ابن ماكولا : الإكمال (٤٨٣/٢). م .
٤٣- ديوان الفرزدق (٢٥٢/١) .
٤٤- ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (ص ٢٢٧) . م .
٤٥- الآمدي : المؤتلف والمختلف (ص ٤٧) .
٤٦- ديوان الحطيئة (ص ٦) .
٤٧- ابن منظور : لسان العرب (٣٥٩/١٠) . م .
٤٨- الزبيدي : تاج العروس (٤٧/٦) . م .
٤٩- السيوطي : بغية الوعاة (٥٧/١) . م .
٥٠- خميس الحوزي : أسئلة السلفي (ص ١٠٦) .
٥١- العماد الأصفهاني : خريدة القصر (١٧٠/١) ط . القاهرة ١٩٥١م .
٥٢- الذهبي : العبر (٢٤٩/٥) . م .
٥٣- أبو العباس المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٦٣٠/١) تحقيق إحسان عباس - بيروت .
٥٤- ابن حجر : تقريب التهذيب (١٩٢/٢) تحقيق عبدالوهاب؛ ط . دار المعرفة للطباعة والنشر .
٥٥- الأصفهاني : الأغاني (١٦٩/٢٣) . م .
٥٦- ابن الجوزي : المنتظم : في تاريخ الملوك والأمم (١٨٥/٧) ط . دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد .
٥٧- الثعالبي : يتيمة الدهر (٢٨٥/٢) .
٥٨- ابن جميع : معجم الشيوخ (ص ١٢٥) ط . مؤسسة الرسالة - بيروت .
٥٩- ابن عدي : الكامل في ضعفاء الرجال .
٦٠- الآمدي : المؤتلف والمختلف (ص ١٨) . م .
٦١- الجاحظ : البيان والتبيين (٤٠١/١ - ٤٠٢) . م .
٦٢- ابن قتيبة : عيون الأخبار (٩٤/٣) . م .
٦٣- الآمدي : المؤتلف والمختلف (ص ١٧) . م .
٦٤- البغدادي : خزانة الأدب (١٦٥/١) المطبعة الأميرية - القاهرة (١٢٩٩) . م .
٦٥- المحب الطبري : الرياض النضرة في مناقب العشرة (٢٠٥/٢) .
٦٦- الزبيدي : تاج العروس (١٤١/٩) . م .
٦٧- السهيلي : الروض الأنف (٦١/٤) .

* أثرت لفظ (م) لما مر ذكر طبعته تحاشياً من التكرار .

أسطورة تدارك الأخفش للبحر المتدارك

محمد عبدالمجيد الطويل

أستاذ النحو والصرف والعروض بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

> **" إياكَ إنْ نُقِلَ إليك وزنٌ منسوب إلى العرب ، لا تراه في الحصر ، أن تعد فواته قصوراً في المخترع ، فلعله تعمد إهماله لجهة من الجهات ، وأي نقيصة في أن يفوته شيء هو في زوايا النقل لا زوايا العقل" (السكاكي، مفتاح العلوم)**

مقدمة : تشيع في بعض العلوم شائعات غير صحيحة، يلقيها أحدهم مرة، غير ملقٍ لها بالاً، وسرعان ما يتلقفها الناس، ويتوارثونها خَلَفاً عن سلف، جيلاً وراء جيل، غير مبالين بمدى صدقها أو كذبها، ودون اهتمام بالبحث عمن أطلقها، المهم أن تُرْوى، مادام فلان أو غيره رواها، وهكذا من قلد عالماً لقي الله سالماً ...

من هذه الشائعات التي قابلتني في بداية حياتي الجامعية، مقولة إن الخليل جمع أوزان الشعر العربي، فوجدها خمسة عشر بحراً، وأن الأخفش تدارك عليه البحر السادس عشر، ولذا أطلق عليه لقب المتدارك أو المحدث ...

وهذه المقولة تتردد في بعض كتب العروض القديمة، وفي كل كتب العروض المحدثة . دون أن يكلف أحد من المؤلفين نفسه مئونة التثبت من صدقها، أو البحث عن من أطلقها (١) .

والشائعة مرفوضة ينسفها واقع دوائر العروض نفسه؛ لأن فكرة الدوائر عند الخليل قائمة على الفك من الوتد أو السبب، والمتقارب تفعيلته فعولن //٥/٥ والمتدارك عكسه فاعلن /٥//٥ = لُنْ فعو

أما أن الخليل لم يذكره فهذه حقيقة؛ لأنه ليس لديه شعر عليه، وحتى اليوم بعد الخليل بقرون ليس لدينا شعر جاهلي أو إسلامي أو أموي (٢) على هذا المتدارك، لكن نظام الدائرة - كما قلنا - يثبته، فلعل الخليل عده مهملاً، وكل دوائره فيها هذا وذاك، المستعمل والمهمل .

وفضلاً عن هذا؛ فإن أباالطيب اللغوي (ت ٣٥٠هـ) ذكر في كتابه مراتب النحويين شعراً للخليل على هذا المتدارك، ورواها له أيضًا صاحب إنباه الرواة، وعنهما نقله جامع شعره (٣) .

فلعل الخليل عد البحر محدثًا، فلم يذكره ولم يعتد بنظمه عليه؛ لأنه محدث، ويقول أبو العلاء عن هذا البحر: الوزن الذي يسمى ركض الخيل وزن ركيك ضعيف وهجرته الفحول في الجاهلية وفي الإسلام، وربما تكلفه الشعراء كما قال :

أبَكَيْتَ على طَلَلٍ طَرَبَا
فَشَجَاكَ وأحْزَنَكَ الطللُ (٤)

ويقول في موضع آخر: وقد ينقلب المتقارب إلى وزن آخر لم تستعمله العرب مثل قوله :

أَنْتِ يَاقُوتَةٌ عِنْدَنا في الرضا
غَيْرُ مَقْلِيةٍ عِنْدَنا في الغضبْ (٥)

وعلى هذا فالشق الأول من القضية صحيح، الخليل لم يذكر المتدارك، لكنه موجود في دائرته، وبخاصة أن هذه الدائرة ليس فيها سوى بحر واحد هو المتقارب...

ونأتي إلى الشق الثاني : هل تداركه الأخفش؟ ... وإذا لم يكن هذا صحيحًا فمن تداركه، ومن ألقى هذه الشائعة إلى الناس ؟ ...

ونقول : إن الأخفش لم يتدارك المتدارك، ويؤيدنا في

هذا شيئان، أولهما كتاب العروض للأخفش، فقد عثر عليه مؤخراً (٦) وليس فيه أي إشارة إلى هذه القضية لا من قريب ولا من بعيد مع أن في الكتاب أشياء خالف فيها الأخفش أستاذه الخليل، أو استدركها عليه، أو رفضها، لكن لا ذكر لهذا التدارك ...

والأمر الآخر أننا لا نجد هذه الشائعة في التراث العروضي بعد الخليل؛ لأكثر من ثلاثة أو أربعة قرون ...

ولقد حاولت تتبع مسار هذه الشائعة، فرجعت إلى كل كتب العروض (٧) القديمة التي طبعت بعد ترتيبها تاريخياً فوجدت الآتي :

التراث العروضي الذي وصلنا بالفعل هو :

١ - الأخفش ت ٢١٥ هـ في كتابه العروض
٢ - ابن عبد ربه ت ٣٢٨ هـ في كتابه العقد الفريد
٣ - الصاحب بن عباد ت ٣٨٥ هـ في كتابه الإقناع
٤ - ابن جني ت ٣٩٢ هـ في كتابه مختصر العروض
٥ - الجوهري ت ٤٠٠ هـ في كتابه عروض الورقة
٦ - المعري ت ٤٤٩ هـ في كثير من رسائله وكتبه(٨)
٧ - التبريزي ت ٥٠٢ هـ في كتابه الكافي
٨ - ابن القطاع ت ٥١٥ هـ في كتابه البارع
٩ - الزمخشري ت ٥٣٨ هـ في كتابه القسطاس المستقيم
١٠- الشنتريني ت ٥٥٠ هـ في كتابه المعيار
١١- السكاكي ت ٦٢٩ هـ في كتابه مفتاح العلوم
١٢- المحلي ت ٦٧٣ هـ في كتابه شفاء الغليل
١٣-حازم القرطاجني ت ٦٨٤ هـ في كتابه منهاج البلغاء
١٤- ابن واصل الحموي ت ٦٩٧هـ في كتابه الدر النضيد
١٥- الإسنوي ت ٧٧٢ هـ في كتابه نهاية الراغب
١٦- الدماميني ت٨٢٧ هـ في كتابه العيون الغامزة

الأخفش - كما قلنا - لم يتعرض للقضية .

أما ابن عبد ربه فقد درس الأعاريض والقوافي، في كتابه العقد الفريد (٩) وقد ذكر البحور الخمسة عشر ولم يعرض للقضية من قريب أو من بعيد، ولم يشر للمتدارك ولم يذكره باسمه، لكنه جعله مهملاً في دائرته فتكون الدائرة فيها مستعمل وهو المتقارب وفيها مهمل كذا فقط، وعنه يقول في أرجوزته :

وبعدها خامسة الدوائر
للمتقارب الذي بالآخر
ينفك منها شطره وشطر
لم يأت في الأشعار منه الذكر

هذا ما قاله : لم يأت في الأشعار، ولم يصرح باسمه...

فإذا ما ذهبنا إلى العلم التالي لابن عبد ربه، وهو الصاحب بن عباد فنجد كتابه الإقناع في العروض وتخريج القوافي (١٠) ونجده يذكر البحور الخمسة عشر فقط ولا يعرض للمتدارك، ولا لقصته من قريب أو من بعيد، مما كان مثار دهشة محققه فيقول : عجيب جداً أن يجيء عصر الصاحب بعد عصر الأخفش الذي يقال عنه إنه استدرك على أستاذه الخليل بحراً جديداً، يقصدون به بحر المتدارك ... ومع هذا نرى الصاحب لا يعترف به بحراً، مقتفياً بذلك أثر الخليل (١١) .

العلم الذي يلي الصاحب، هو عبقري العربية الكبير، أبو الفتح ابن جني في كتابه (١٢) مختصر العروض .

وبالرجوع إليه لا نجد أي إشارة لهذه القضية فهو، كسابقيه ، يذكر البحور الخمسة عشر فقط ولا يعرض للمتدارك أصلاً ...

وبهذا نكون قد رصدنا قرنين من الزمان بعد الخليل لم يذكر أحد منهم هذه المقولة (١٣) .

العلم الذي يلي ابن جني هو الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد في كتابه عروض الورقة (١٤) .

فنجده يذكر المتدارك باسمه، وهذا لأول مرة كما رأينا، ويقول عنه : إنه مثمن قديم، مسدس محدث، ثم ينتهي إلى أن الخليل لم يعده ضمن الأبحر المعتبرة، لكنه لا يذكر قصة استدراكه من قريب أو من بعيد (١٥) .

وبعد الجوهري يتوقف بنا البحث عند أبي العلاء المعري، وقد عرض للمتدارك في الفصول والغايات، ورسالة الصاهل والشاحج، وقد ذكرنا رأيه في مقدمة هذه الدراسة. المهم أنه هو الآخر لم يعرض لقضية المتدارك .

وبعد أبي العلاء يلقانا تلميذه يحيى بن علي الخطيب التبريزي في كتابه الكافي في العروض والقوافي (١٦) .

ونراه يذكر البحور الخمسة عشر فقط ثم يعلق على الدائرة الخامسة بقوله : سميت دائرة المتفق... ومن أصل الخليل أن هذه الدائرة لم ينفك فيها من المتقارب غيره فأفرده في دائرة ..

ومن أصل غيره أنه لما انفك منها المحدث وهو من وضع (لن) من (فعولن)؛ لأنك تقول : لُنْ فعو لُنْ فعو ، فيصير فاعلن فاعلن [١٧] .

كذا فقط : من أصل غيره . مَنْ غيرُه؟ وما اسم المحدث؟ ... لا شيء .

ويجيء بعد الخطيب ابن القطاع السعدي الصقلي في كتابه البارع [١٨] .

ونجده يذكر البحور الخمسة عشر فقط، ثم يذكر زحافات المتقارب، ويقول : وقد أخرج بعضهم من بحر المتقارب جنسًا يسمى المخترع، ويسمى الخبب، وركض الخيل، وهو مبني على فاعلن ثماني مرات [١٩] .

فهو – كما ترى – لم يذكر مَنْ بعضهم هذا وما اسم البحر؟ ...

فإذا ما ذهبنا إلى الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر، وجدنا كتابه القسطاس المستقيم في العروض [٢٠].

ونجده يذكر البحور الخمسة عشر، ثم يذكر السادس عشر بقوله : الركض، وهو في البناء مثمن كما هو في الدائرة، غير أنه جاء مخبونًا أو مقطوعًا [٢١] .

لم يذكره باسم (المتدارك) ولم يذكر قصة تداركه، إلا أن محققته علقت على ذلك بقولها : سمى كل قوم من العروضيين هذا البحر باسم، فسمي بالمتدارك؛ لأنه تدارك به الأخفش النحوي على الخليل حيث تركه ولم يذكره من جملة البحور ... كذا دون أن تذكر مرجعًا لما ذكرت ...

وبعد الزمخشري يلقانا ابن السراج الشنتريني في كتابه المعيار في أوزان الأشعار [٢٢] .

فوجدناه يذكر البحور الخمسة عشر، ويعلق على المتقارب بقوله : رب دائرة المتفق لا يشركه فيه غيره عند الخليل [٢٣] .

ثم يذكر المتدارك ويقول عنه : وقد ذهب غير الخليل إلى أنه مستعمل ويسمى المخترع والخبب وركض الخيل، وليس عند الخليل شعرًا، ويروى أنه نص على طرحه [٢٤].

أربعة قرون الآن بعد الخليل، ولم يذكر أحد حتى الآن تدارك الأخفش له ... كل ما وجدناه مهمل عند غير الخليل، وفي إشارات على استحياء، لم يصرح بها كل من رجعنا إليهم، إنما ذكرها بعضهم فقط ...

وبعد ابن السراج نجد السكاكي في كتابه مفتاح العلوم ، وقد ذكر البحور الخمسة عشر فقط وعد المتدارك من شواذ البحور ومهملها حيث يقول: هذه البحور – الخمسة عشر – هي التي عليها مدار أشعار العرب بحكم الاستقراء لا نجد لهم وزنًا يشذ عنها اللهم إلا نادرًا وأكثر الاستقراءات كذلك لا تخلو عن شذوذ شيء منها ... أو ما ترى المتداني وهو فاعلن ثماني مرات كقولنا :

زَارَنِي زَوْرَةً طَيْفُها في الكرَى
فَاعْتَراني لمنْ زَارَنِي مَا اعترَى

كيف تجده ظاهر التفرع على المتقارب في دائرته وكذا ما يتبعه من الزحافات كالخبن في قوله :

أشجاك تشتت شعب هواك
فأنت له أرق وصب

وكالقطع في قوله :

إن الدنيا قد غرتنا
واستهوتنا واستلهتنا

على قول من يعده شعرًا [٢٥] .

هذا ما قاله : عند من يعده شعرًا، إذن هو عنده مهمل كسابقيه من العلماء، وقد ذهب السكاكي إلى أشد من هذا في مقدمة الفصل، فقال : إياك إن نقل إليك وزن منسوب إلى العرب، لا تراه في الحصر أن تعد فواته قصورًا في المخترع فلعله تعمد إهماله لجهة من الجهات، وأي نقيصة في أن يفوته شيء هو في زوايا النقل لا زوايا العقل ...[٢٦].

أرأيت إن كان شعرًا صحيح النسبة منقولاً عن العرب، فلعل الخليل أسقطه لسبب ما ؟ ما بالك وهذا المتدارك ليس عليه شعر أبدًا لا من الجاهليين ولا من بعدهم حتى عصر العباسيين، وإشاعة استدراكه؛ لا نجد لها أبًا حتى الساعة، فكأنها لقيطة ألقاها في زاوية خربة وتركها ...

العلم الذي نلقاه بعد السكاكي هو محمد بن علي

المحلي، وله كتاب شفاء الغليل في علم الخليل (٢٧) .

ونراه يذكر البحور الستة عشر كلها بما فيها المتدارك، لكن دون أن يشير إلى قصة التدارك من قريب أو من بعيد .

فهو يقول عن المتدارك : وأما المتدارك فوزنه فاعلن ثماني مرات، وله عروضان ... (٢٨) .

ونجيء إلى حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء (٢٩) .

فنجده يتحدث عن البحور وصورها ومجزوءاتها ومشطورها، وما يعرض لكل صورة من تغيير مع تقديم رأيه الخاص، المخالف - في كثير من الأحيان - لما عليه القدماء، مع تقديم رأيه في شرف البحور ودناءتها، وملاءمة الأوزان للمعاني، على أنه رغم تكرار حديثه عن المتدارك في أكثر من موضع من كتابه إلا أنه لم يذكر ما نحن فيه لا من قريب ولا من بعيد .

فهو يتحدث عنه مرة ، مقترحاً تغيير تقطيعه عما ذهب إليه القدماء ، مقدماً تقطيعاً تساعياً : متفاعلتن متفاعلتن مرتان في كل شطر، ويدخله الإضمار، وقدم عدة أخطاء وقع فيها القدماء في تصور البحر وتفعيلاته، مما جعله يسمح لنفسه أن يغير في شكل تفاعيله، يقول (٣٠) : ... فلهذه الأسباب وما جرى مجراها مما لا يتسع لذكره هذا الموضع اقتضى النظر البلاغي أن يعدل بكثير من تقديرات الأوزان عما قدر به العروضيون؛ إذ كانوا جهالاً بطرق التناسب والتنافر (كذا) حتى إنهم جزءوا كثيراً من الأوزان تجزئة وقعوا بها في حيز الوضع المتنافر، ولذلك حققنا في كل وزن تجزئته المناسبة .

وعرض له مرة أخرى (٣١) بالرفض فقال : والذي يشك في وضع العرب له الخبب، فلم تعد القضية قضية تدارك إنما هو يشك في أنه وزن عربي أصلاً ...

العلم الذي يلي حازم في الترتيب التاريخي الذي التزمناه، هو : جمال الدين عبدالرحيم الإسنوي الشافعي، في كتابه نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب (٣٢)، وهو شرح لقصيدة ابن الحاجب في العروض ، وهو يذكر البحور كلها وحين يصل إلى المتدارك يقول : هذا هو البحر الذي لم يذكره الخليل وتداركه غيره، ولهذا سمي المتدارك كما قاله ابن واصل وغيره (٣٣) .

كذا قال : تداركه غيره ومصدره ابن واصل .

وابن واصل هذا - لحسن الحظ - هو العلم التالي له، وكتابه الدر النضيد في شرح القصيد، وهو كسابقه في شرح قصيدة ابن الحاجب (٣٤) .

فإذا ما ذهبنا إلى ابن واصل هذا وجدناه يذكر القضية لأول مرة (٣٥) فيقول : ... ثم أخذ في ذكر المتدارك وهو البحر الذي أثبته الأخفش وأنكره الخليل ... (٣٦) .

كذا مرة واحدة : أثبته الأخفش، ولم يذكر لكلامه هذا مصدراً وهو من علماء القرن السابع، بينه وبين الخليل خمسة قرون، ولذا ليس مقبولاً أن نجد عنده ما لم نجده عند سابقيه .

ويزيد عجبنا حين نرى الإسنوي، وهو الذي أشار علينا بابن واصل، لا يوافقه على ما ذكر فلم ينسبه للأخفش كما فعل، وإنما قال : تداركه غيره، كذا قال ابن واصل وغيره...

العلم اللاحق لابن واصل وهو الأخير في قائمتنا، هو البدر الدماميني في كتابه العيون الغامزة على خبايا الرامزة (٣٧) وكلامه عن المتدارك مضطرب، فهو مرة ينسب تداركه للأخفش كما فعل ابن واصل، ومرة ينسبه إلى مجهول .

فهو مرة يقول عن الأوزان : كونها خمسة عشر هو مذهب الخليل وزاد الأخفش بحراً آخر ذهب إلى أنه مستعمل وتبعه على ذلك جماعة وهو بحر المتدارك ... والخليل يرى أنه من المهملات (٣٨) ...

ويقول في موضع آخر بعد حديثه عن المتقارب : ويخرج منه بحر وزنه فاعلن ثماني مرات ولم يذكره الخليل واستدركه المحدثون، فسمي بالمتدارك والمحدث (٣٩) .

كذا مرة ذكره الأخفش، وأخرى ذكره المحدثون؟؟...

وعلى هذا فأول ذكر لهذه القضية ونسبته إلى الأخفش، كان عند ابن واصل الحموي ت ٦٩٧ هـ ولم يذكر مصدراً واحداً لكلامه هذا، وتابعه الدماميني ت٨٢٧هـ والمتأخرون جميعاً .

الهوامش

١ - راجع مثلاً المرشد إلى فهم أشعار العرب لعبدالله الطيب ١/٨٠، وفن التقطيع الشعري والقافية، لصفاء خلوصي ١٩٤، في علمي العروض والقافية لأمين السيد ٩٤، أوزان الشعر العربي وقوافيه لإبراهيم الأدكاوي ١٣٣، دراسة نظرية تطبيقية لبدوي المختون ٨٠، العروض والقافية دراسة ونقد لعبدالرحمن السيد ٨٥، أهدى سبيل إلى علمي الخليل لمحمود مصطفى ٩٢، ميزان الذهب لأحمد الهاشمي ٩٧، دراسات في العروض والقافية لعبدالله درويش ٩٧ .

٢ - وهو الشعر الذي كان أمام الخليل وهو يستنبط العروض ويستخرج أوزانه .

٣ - راجع مراتب النحويين ٣٢، وإنباه الرواة ١/٣٤٢، شعراء مقلون لحاتم الضامن ٣٤٨، ٣٥٣ .

٤ - رسالة الصاهل والشاحج ٥٢٧، والعروض والقوافي عند أبي العلاء المعري .

٥ - الفصول والغايات ١٣٤ .

٦ - حققه أحمد عبدالدايم، ونشره في القاهرة ١٩٨٩م .

٧ - لن نحاول - طبعًا - الرجوع إلى كل كتب العروض، وإنما كتب العروض التي طبعت سواء أكانت محققة أم غير محققة.

٨ - جمعنا آراء أبي العلاء العروضية كلها من رسائله وكتبه وحققناها في كتاب العروض والقوافي عند أبي العلاء المعري، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٨٧م.

٩ - ٤/٣٤ وما بعدها : الجوهرة الثانية .

١٠- حققه محمد حسن آل يس، وأعاد نشره إبراهيم الإدكاوي، وعلى نشرته كان اعتمادنا .

١١- السابق ١٥٣ .

١٢- حققه حسن شاذلي فرهود، وأعاد تحقيقه أحمد فوزي الهيب، وعلى نشرته كان اعتمادنا .

١٣- على الأقل فيما وصلنا من تراثهم .

١٤- حققه محمد العلمي، ونشرته دار الثقافة المغربية ١٩٨٤م، وأعاد تحقيقه صالح جمال بدوي بمكة المكرمة عام ١٩٨٥م، واعتمدنا على النشرتين معًا .

١٥- نشرة محمد العلمي ٦٨، ونشرة صالح جمال ٩١ .

١٦- نشرة الحساني حسن عبدالله .

١٧- السابق ١٣٨ .

١٨- نشره أحمد عبدالدايم ١٩٨٤م .

١٩- السابق ٢٠٦ .

٢٠- حققته السيدة بهيجة باقر الحسيني، بغداد ١٩٦٩م.

٢١- السابق ٢٣١ .

٢٢- تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت ١٩٦٨م.

٢٣- السابق ٨١ .

٢٤- السابق ٨٤ .

٢٥- مفتاح العلوم ٢٦٧ .

٢٦- السابق ٢٤٥ .

٢٧- حققه شعبان صلاح .

٢٨- شفاء الغليل ١٨١ .

٢٩- تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، تونس ١٩٦٦م .

٣٠- السابق ٢٣١ .

٣١- السابق ٢٤٣ .

٣٢- تحقيق شعبان صلاح .

٣٣- السابق ٣٣٤ .

٣٤- حققه محمد عامر، وأعادت تحقيقه وحصلت به على الماجستير بإشرافي، تلميذتي السيدة عزة عبدالستار فراج، كلية دار العلوم ١٩٩٢م .

٣٥- على الأقل بحسب مصادرنا .

٣٦- الدر النضيد ٢٨٧ .

٣٧- حققه الحساني حسن عبدالله .

٣٨- السابق ٢٢ .

٣٩- السابق ٥٩ .

المراجع والمصادر

أولاً - النصوص القديمة :

١ - الأخفش الأوسط : أبو الحسن سعيد بن مسعدة
العروض ، تح أحمد عبدالدايم، القاهرة ٨٩ مكتبة الزهراء .

٢ - الإسنوي : جمال الدين عبدالرحيم
نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب، تح شعبان صلاح، القاهرة، دار الثقافة العربية، ١٩٨٨.

٣ - ابن جني : أبو الفتح عثمان .
مختصر العروض، تح أحمد فوزي الهيب، الكويت دار القلم ١٩٨٧.

٤ - الجوهري : إسماعيل بن حماد .
عروض الورقة، تح محمد العلمي، المغرب، دار الثقافة ١٩٨٤، وتح صالح جمال بدوي، مكة المكرمة ١٩٨٥.

٥ - حاتم الضامن .
شعراء مقلون ، بيروت ١٩٨٧ عالم الكتب .

٦ - حازم القرطاجني
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب بن الخوجة، تونس ١٩٦٦م.

٧ - الخطيب التبريزي .
الكافي في العروض والقوافي ، تح الحساني حسن عبدالله، القاهرة ١٩٦٩م .

٨ - الدماميني : بدر الدين محمد بن أبي بكر
العيون الغامزة على خبايا الرامزة ، تح الحساني حسن عبدالله، الرياض مكتبة اللواء ١٩٧٣م .

٩ - الزمخشري : محمود بن عمر .
القسطاس المستقيم في العروض ، تح بهيجة باقر الحسيني ، بغداد ١٩٦٩م .

١٠- ابن السراج الشنتريني
المعيار في أوزان الأشعار، تح محمد رضوان الداية، بيروت ١٩٦٨.

١١- السكاكي : يوسف بن أبي بكر
مفتاح العلوم ، بيروت د . ت .

١٢- الصاحب بن عباد
الإقناع في العروض وتخريج القوافي، تح إبراهيم الإدكاوي، القاهرة ١٩٨٧ .

١٣- ابن عبدربه : شهاب الدين أحمد
العقد الفريد ، ط٢، المطبعة الأزهرية ١٩٢٨ .

١٤- أبو العلاء المعري
رسالة الصاهل والشاحج، تح بنت الشاطئ ، دار المعارف، القاهرة.
الفصول والغايات، تصحيح محمود حسن زناتي، القاهرة ١٩٣٥ .

١٥- ابن القطاع السعدي
البارع في علم العروض، تح أحمد عبدالدايم، مكة المكرمة ١٩٨٥.

١٦- المحلي : محمد بن علي
شفاء الغليل في علم الخليل، تح شعبان صلاح، بيروت، دار الجيل ١٩٩١.

١٧- محمد عبدالمجيد الطويل
العروض والقوافي عند أبي العلاء المعري، نصوص محققة، دار الثقافة العربية، القاهرة ١٩٨٧.

ثانياً : النصوص الحديثة :

١ - إبراهيم الإدكاوي .
أوزان الشعر العربي وقوافيه، ط أولى القاهرة ١٩٩٦.

٢ - أحمد الهاشمي
ميزان الذهب ، بيروت ١٩٧٣.

٣ - أمين علي السيد .
في علمي العروض والقافية، دار المعارف، القاهرة .

٤ - صفاء خلوصي .
فن التقطيع الشعري والقافية، بغداد ١٩٧٧م

٥ - عبدالرحمن محمد السيد .
العروض والقافية دراسة ونقد، القاهرة د . ت .

٦ - عبدالله درويش .
دراسات في العروض والقافية، مكتبة الشباب، القاهرة د.ت.

٧ - عبدالله الطيب .
المرشد إلى فهم أشعار العرب، القاهرة ١٩٥٥.

٨ - محمد بدوي المختون.
دراسة نظرية تطبيقية، مكتبة الشباب ١٩٧٧.

٩ - محمود مصطفى
أهدى سبيل إلى علمي الخليل، مكتبة صبيح، القاهرة ١٩٧٥.

ثالثاً : المخطوطات :

١ - ابن واصل الحموي
الدر النضيد في شرح القصيد، رسالة ماجستير محفوظة بمكتبة كلية دار العلوم إعداد عزة عبدالستار فراج .

طرق وأدوات تقييم مجموعات المكتبات الجامعية

فالح عبدالله الضرمان الغامدي

كلية التربية - جامعة الملك فيصل - الأحساء

ملخص تهدف هذه الدراسة إلى عرض وتحليل بعض طرق وأدوات تقييم المجموعات، مع بيان مزايا وعيوب كل منها . وقد تبين للباحث في هذه الدراسة أن هناك طرقاً وأدوات كثيرة تستخدم لتقييم مجموعات المكتبات الجامعية بعضها يركز على الجانب الكمي وبعضها يركز على الجانب النوعي للمجموعات . وأبرز ما يعاب على الطرق النوعية هو أن نتائجها تعتمد على مرئيات المقيِّم بما قد يكون فيها من تحيز ومبالغة . بينما يعاب على الطرق الكمية أنها تركز على البيانات الرقمية دون إيضاح للمستوى النوعي للمجموعات . ولهذا يرى الباحث أن أفضل طرق التقييم هي الطرق التي تجمع بين كلا الجانبين الكمي والنوعي، ويمكن أن يتحقق ذلك باستخدام ما لا يقل عن طريقتين أو أداتين من طرق وأدوات التقييم الكمية والنوعية في آن واحد .

وفي النهاية أوصى الباحث بإجراء تقييم للمجموعات بشكل دوري ومنظم بناء على خطة مكتوبة للمكتبة، ودعا إلى تبني فكرة التعاون والتنسيق بين المكتبات فيما يخص تطوير المجموعات وتقييمها .

من المتوقع أن تتأثر المكتبات الجامعية بأي تغيير أو تطوير يحدث في الجامعات التي تنتمي إليها، أو المجتمعات التي تخدمها . ويفترض منها أن تجاري ذلك التغيير والتطوير بتغيير وتطوير مماثلين في خدماتها، وبرامجها، ووظائفها، ومجموعاتها، لكي تتحقق الأهداف التي أنشئت من أجلها .

ومن الأهمية أن يكون أصحاب القرار في المكتبات على وعي تام بالتغيرات والتطورات الخارجية التي لها علاقة بمكتباتهم، وأن يكون لديهم القدرة على التخطيط السليم لمواجهة تلك التغيرات والتطورات، ورسم السياسات والخطط المستقبلة المناسبة التي تساعد على تحقيق أهداف مكتباتهم، والقيام بواجباتها تجاه المستفيدين كافة. ومن هنا تبرز الحاجة إلى إجراء دراسات تقييمية منظمة ودقيقة للتأكد من أن المكتبات تقوم بالدور المطلوب منها بكفاءة وفاعلية .

ومع أن كثيراً من أعمال ووظائف المكتبات قد حظيت باهتمام كبير، إلا أن عملية تقييم المجموعات لم تحظ باهتمام مماثل . ولكن الضغوط المتزايدة على ميزانية المكتبات، وتعدد وتنوع مطالب ورغبات واحتياجات المستفيدين تجبر المكتبات على القيام بتقييم مجموعاتها من وقت إلى آخر من أجل ترشيد الإنفاق، وكسب رضا القراء والباحثين .

والهدف الأساس من تقييم المجموعات هو تحديد نواحي القوة والضعف في مجموعات المكتبة، والتأكد من تلاؤم هذه المجموعات مع الأهداف الخاصة بالمكتبة والجامعة . كما أنها تساعد على تحديد مستوى التغطية المطلوبة في كل موضوع من موضوعات المجموعات، ومدى علاقة هذا المستوى بمعايير الاختيار والتزويد، والمناهج، والبرامج الدراسية التي تخدمها المجموعات، وأساليب

وطرق التدريس المتبعة في الجامعة، وأشكال أوعية المعلومات المطلوبة ... إلخ .

كما أن هناك أسئلة عديدة لاتزال تطرح من وقت إلى آخر حول كيف يمكن تحديد القيمة الحقيقية للمجموعات من منظور المستفيدين؟، وما الحجم الحقيقي الذي يناسب حجم المستفيدين التابعين للمؤسسة التي تخدمها المكتبة؟، ومتى وكيف تقوم المكتبة بتطوير وتقييم مجموعاتها؟، وما الأسس التي يبنى عليها ذلك التطوير والتقييم؟، وما الوظائف والخدمات الأخرى التي يمكن أن تتأثر سلبًا أو إيجابًا بتطوير وتقييم المجموعات؟، وما المصادر المالية والبشرية المطلوبة لإجراء عملية التقييم ؟

كل الأسئلة السابقة، وغيرها الكثير، تكشف لنا أنواعًا من الصعوبات التي تتضمنها عملية تقييم المجموعات، ولكنها في الوقت نفسه تؤكد لنا أهمية التقييم لما له من إيجابيات، وفوائد متعددة يمكن إجمالها فيما يلي :

١ – يساعد المكتبة على التعرف بشكل عام على طبيعة المجموعات، ومدى كفايتها، وتحديد نواحي الضعف والقوة فيها .

٢ – يساعد في ترشيد عملية التزويد، ومن ثم إعداد خطة تزويدية منظمة ودقيقة حسب الإمكانات المتاحة للمكتبة .

٣ – تستخدم نتائج التقييم كمبرر للحصول على مزيد من الدعم المالي لميزانية المكتبة من أجل شراء مزيد من الكتب، والاشتراك في مزيد من الدوريات .

٤ – تحديد مدى فاعلية المكتبة في خدماتها المقدمة للمستفيدين، ومن ثم التعرف على المشكلات والعوائق التي تحدّ من هذه الفاعلية، والعمل على زيادة الفاعلية في الخدمات المقدمة أو إيجاد خدمات جديدة .

٥ – توثيق العلاقة مع المستفيدين، وذلك بالتعرف على رغباتهم واحتياجاتهم ومحاولة تلبيتها بكل فاعلية وكفاءة .

وفي هذه الدراسة قام الباحث بالاطلاع على بعض الدراسات المنشورة حول تقييم مجموعات المكتبات، فوجد أن أفضلها من المنشورات القديمة . ومع أنه حرص على الاطلاع على أكثر عدد ممكن من الدراسات الحديثة إلا أن ظروف البحث ومحدودية المصادر وقفت عائقًا دون تحقيق ذلك . كما أنها ركزت بشكل أساس على المكتبات الجامعية، واقتصرت في تناولها لطرق وأدوات التقييم على مجموعات الكتب والدوريات .

هدف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة إلى عرض وتحليل بعض طرق وأدوات تقييم المجموعات المستخدمة في المكتبات، وستيضمن هذا العرض والتحليل بعض الدراسات التقييمية المنشورة، بالإضافة إلى التعريف بأهم وأكثر أدوات التقييم استخدامًا في المكتبات مع بيان مزايا وعيوب كل منها .

المشكلة :

مع أن تقييم المجموعات عملية مهمة للمكتبات إلا أنها أحيانًا تمارس بطرق غير منظمة، أو أنها تهمل عمدًا، إما لعدم الاقتناع بها، وإما لصعوبة وتكلفة إعدادها وتنفيذها . وعند وجود الاقتناع تظهر مشكلة تحديد ما إذا كانت أدوات التقييم الكمية أفضل من أدوات التقييم النوعية لتقييم المجموعات، وما الطرق والإجراءات الممكنة لإجراء التقييم بسهولة وبأقل تكلفة ؟

كما وجد الباحث في بحث أجراه على مكتبات الجامعات السعودية بخصوص تطوير وتقييم مجموعاتها أن تقييم المجموعات في الغالبية العظمى من هذه المكتبات لا يتم إلا نادرًا بطريقة غير نظامية وبدون خطة مكتوبة. وبناءً على ذلك أوصى بإنشاء أقسام مستقلة لتطوير وتقييم المجموعات، وإعداد خطط مكتوبة لهذه الأقسام، وإجراء تقييم للمجموعات بشكل دوري. كما وجد أن من معوقات تقييم المجموعات عدم وجود أدوات تقييم مناسبة (١) .

ولأهمية عملية التقييم في كشف كفاءة وكفاية مجموعات المكتبة، ولما يترتب على ذلك من قرارات إدارية ومالية مهمة، فقد رأى الباحث أن من الضروري التركيز على موضوع تقييم المجموعات في دراسة منفردة، وعرض وتحليل بعض الطرق والأدوات المستخدمة في تقييم المجموعات، لعل أن يكون في ذلك ما يفيد المكتبات الجامعية عند القيام بتقييم مجموعاتها .

عرض لبعض الدراسات المنشورة :

يسجل لنا أدب المكتبات عددًا كبيرًا من الدراسات والأبحاث التي تناقش موضوع تطوير وتقييم المجموعات . ولأهمية المجموعات بالنسبة للمكتبات وللمستفيدين، فقد حظيت بالنصيب الأكبر من هذه الأعمال المنشورة . ولكن من النادر الحصول على دراسات تقييمية لمجموعات المكتبات في عالمنا العربي إما لعدم قناعة المسئولين عن المكتبات بأهمية مثل هذه الدراسات، وإما لاعتقادهم بأنها تأخذ وقتًا طويلاً ، وتتطلب مبالغ مالية عالية، وجهودًا مكثفة.

وإذا نظرنا إلى عملية تطوير وتقييم المجموعات من منظور تاريخي لوجدناها تمارس في الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية بطرق مخالفة لما تعارف عليه المكتبيون في عصرنا الحاضر ، فعلى سبيل المثال يذكر بول موشر (Paul Mosher) أن تقييم مجموعات المكتبات الأمريكية كان يقوم به أساتذة الجامعات وليس موظفو المكتبة(٢)، ربما لأن تعليم موظفي المكتبات كان في ذلك الوقت متواضعًا مقارنة بالتعليم الذي حصل عليه أساتذة الجامعات . وتذكر لنا هاري باتش (Harry Bach) أن دراسة أجريت في الثلاثينات من هذا القرن على ٤٣ كلية أمريكية، حيث أوضحت النتائج أن دور موظفي المكتبات في ٣٣ كلية لم يتعد سوى المساعدة في عملية التزويد لتفادي تكرار طلبات التزويد، وفي الكليات العشر الباقية كانت الكتب تطلب عن طريق الأقسام الأكاديمية دون أي إشراف من لدن موظفي المكتبة (٣) .

وهناك دراسة أخرى أجريت على مكتبات بحثية كبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية هي جامعة هارفرد ، وجامعة كاليفورنيا ، وجامعة شيكاغو، وجامعة متشجن، ومكتبة نيويورك العامة؛ وذلك لتحديد مستوى التغطية لـ (٥٧٣) كتابًا ودورية غير أمريكية في أربع حقول في تخصص العلوم الاجتماعية، حيث كشفت النتائج أن مكتبة نيويورك العامة كانت تملك (٩٢٪) من العناوين ، بينما كانت تمتلك كل من جامعة هارفرد (٦٨٪)، وجامعة شيكاغو (٥٧٪)، وجامعة كاليفورنيا (٤٥٪)، وجامعة متشجن (٣٦٪) .

والتفسير الذي قدمته الدراسة لارتفاع نسبة التغطية في مكتبة نيويورك العامة هو وجود اختصاصي موضوعات في المكتبة لاختيار المجموعات، بينما اعتمدت المكتبات الجامعية الأخرى على خبرة ومقترحات أعضاء هيئة التدريس (٤) .

والمتتبع للإنتاج الفكري في المكتبات يرى أن الكثير من الدراسات والأبحاث المهمة في مجال تقييم المجموعات قد نشرت في السبعينات، ومن بينها ما أعده جورج بون (George Bonn) لمجلة (Library Trends) (٥). بالإضافة إلى فصل مهم كتبه لانكستر (Lancater) عن تقييم المجموعات، ثم ضمنه في كتابه (The Measurement and Evaluation of Library Services) (٦) .

ومعظم ما كتب عن تقييم المجموعات كان يتناول واحدًا أو أكثر من أدوات التقييم . ومن أمثلة ذلك دراسات مهمة قام بها كل من بور (Burr) في واشنطن (٧)، وإيفيدون (Ifidon) في نيجيريا (٨)، ودراسة قامت بها سنثيا كومر (Saynthia Comer) حول استخدام طريقة القوائم (List - checking) في تقييم المجموعات(٩). وفي المملكة العربية السعودية قام محمد صالح عاشور بمسح للمكتبات الجامعية في المملكة ، وأجرى تقييمًا لها باستخدام معايير جمعية مكتبات الكليات الأمريكية (١٠) .

وفي جامعة ألينوي قامت تينا (Tina) بتقييم مجموعات الدوريات لتحديد معدل استخدامها مقارنة بتكلفة الاشتراكات . وكان مقياس استخدام الدوريات داخل المكتبة هو تعداد الدوريات المعادة إلى الأرفف (Reshelving)، أما استخدام الدوريات خارج المكتبة فتم قياسه عن طريق الإعارة الخارجية، وأما تحديد السعر للدوريات فكان مبنياً على رسوم الاشتراكات (١١) .

ومن الملاحظ أن طريقة "استطلاعات الرأي" تستخدم أكثر من غيرها في تقييم المجموعات، ومن أمثلة ذلك الدراسة التي قامت بها ماريلين (Marilyn) للتعرف على الطرق والسلوكيات التي يتبعها العلماء في البحث عن المعلومات (١٢)، ودراسة أخرى مشابهة قامت بها ماري

فلستر (Mary Folster) (١٣)، ودراسة ثالثة قامت بها آن ميكارثي (Cherely McCarthy) لتحديد مدى فاعلية مجموعات المكتبة في تلبية احتياجات طلاب جامعة رود أيلاند (١٤) .

ومن الدراسات الحديثة المتعلقة بتقييم المجموعات دراسة أجريت في الولايات المتحدة الأمريكية لتحديد مدى استخدام الدوريات المتخصصة في مجال الأحياء، وذلك باستخدام طريقة إحصاءات الإعارة، وتحليل الاستشهادات المرجعية، واستطلاعات الرأي لأعضاء هيئة التدريس، حيث قدمت الدراسة نتائج مشابهة لإحصاءات الإعارة، والاستشهادات المرجعية، وكشفت أن قائمة الدوريات المبنية على مرئيات أعضاء هيئة التدريس كانت مؤشراً جيداً لمدى الاستخدام (١٥) .

مما سبق يتضح لنا أن أفضل الدراسات المتعلقة بموضوع تقييم المجموعات نشرت ما بين الخمسينات والسبعينات من هذا القرن، وإنها كانت تركز على كيفية تطوير المجموعات، ونقد وتحليل طرق التقييم المتبعة في ذلك الوقت . ومن المحتمل أن الانفجار المعلوماتي الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية وما تمخض عنه من كتب ودوريات منشورة بأعداد كبيرة كان سبباً مهماً وراء الاهتمام بالدراسات المتعلقة بتطوير وتقييم المجموعات. ومن الملاحظ في عصرنا الحاضر أن المستفيدين بدأوا يشكلون المحور الأساس في كثير من الدراسات التقييمية، في حين أن طرق التقييم الكمية بدأت تتغلب على الطرق النوعية وما ذلك إلا لسهولة استخدامها، ولتوافرها بأشكال وأنواع متعددة .

طرق وأدوات تقييم المجموعات :

لاشك أن عملية تقييم مجموعات المكتبات تحتاج إلى تخطيط واستعداد كافيين، ومع أنها عملية مكلفة في كثير من الأحيان، وقد تأخذ وقتاً طويلاً، إلا إنها إجراء لايمكن تجاهله، من أجل تغيير وضع المكتبات إلى الأحسن، وتطوير خدماتها، وترشيد نفقاتها والهدف الأساس لأية عملية تقييم هو التأكد من أن مجموعات المكتبة كافية، شاملة، وفعلاً مستخدمة، وملبية لمتطلبات واحتياجات القراء والباحثين. ولتحقيق هذا الهدف هناك عدد من طرق وأدوات التقييم المستخدمة في المكتبات من أهمها :

١- الطرق الإحصائية (Quantative Methods).

٢- المعايير (Standards) .

٣- القوائم .... (Lists, Bibliographies, Catalogs ect .)

٤- الاستشهادات المرجعية (Citation) .

٥- دراسات الاستخدام (Use Studies) .

٦- استطلاعات الرأي (Users Surveyd) .

٧- الفحص المباشر للمجموعات (Direct Evaluation of the Collection).

الطرق الإحصائية :

تركز هذه الطرق على الجانب الكمي للمجموعات . وهدفها الأول هو جمع بيانات وأرقام حول حجم المجموعات على افتراض أن الحجم الكبير قد يكون مقياساً مقبولاً لتحديد المستوى النوعي (Quality) للمجموعات . وعادة ما تتعلق البيانات التي نحصل عليها عن طريق هذه الطرق الكمية بعدد المجلدات في المجموعات، أو عدد المجلدات في أحد التخصصات، أو في لغة معينة، أو حسب نوع المستفيدين، أو حسب بنود الميزانية ... إلى غير ذلك من التفصيلات التي تحتاج إلى أرقام وبيانات لتحديد خصائصها وكمياتها . والغرض من كل ذلك هو استخدامها إما لإجراء مقارنة بين مجموعات المكتبات، وإما لتطبيق المعايير الخاصة بتطوير المجموعات، وإما للاستعانة بها عند اتخاذ بعض القرارات الإدارية أو المالية .

ومن الميزات الأخرى لهذه الطرق الإحصائية ما يلي:

١- سهلة الاستخدام، ولا تحتاج إلى مهارة أو خبرات عالية في تطبيقها وتحليلها. كما أنها لا تتطلب معرفة مباشرة بالمجموعات المراد تقييمها، مادامت تتعامل مع حجم المجموعات، ممثلة بالأرقام، وليس مع المجموعات ذاتها .

٢- لا يحتاج جمع البيانات إلى وقت طويل، خاصة إذا كانت هذه البيانات ناتجة عن عمليات أخرى،

مثل التزويد، أو موجودة في تقارير سابقة، مثل التقارير السنوية .

٣- يمكن استخدامها وتطبيقها في المكتبات كافة دون اعتبار لحجم أو نوعية المكتبة .

٤- يمكن فهم نتائجها بسهولة ومن ثم استخدامها لإجراء مقارنة مع إحصاءات المكتبات الأخرى .

ولكن بالرغم من هذه الميزات للطرق الإحصائية فإن لها سلبيات أيضاً، ويمكن إجمالها فيما يلي :

١- المقياس الكمي الذي تتميز به هذه الطرق لا يقيس لنا المقدار النوعي لمجموعات المكتبة .

٢- لا يمكن الاعتماد كلية على الطرق الكمية بمفردها لتحديد كفاية وكفاءة المجموعات لأن الأمر يحتاج إلى أكثر من مجرد أرقام ونسب لتفسير وضع ونوعية المجموعات .

٣- من المتوقع حدوث أخطاء متعددة في البيانات الإحصائية مما يتسبب في عدم صحة ودقة النتائج .

وهناك العديد من الطرق الكمية (الإحصائية) التي تستخدم في عملية تقييم مجموعات المكتبة منها :

١ - طريقة "تعداد المجلدات" .

٢ - طريقة "تعداد الإضافات الجديدة" .

٣ - طريقة "إحصاءات الإعارة" .

بالنسبة لطريقة " تعداد المجلدات" فتهتم بتعداد كمية المجلدات التي تمتلكها المكتبة، وقد يكون التعداد حسب نوع المجموعات، مثلاً عدد مجموعات المراجع، أو عدد الدوريات، ويمكن أن يكون التعداد حسب الموضوعات أو التخصصات التي تغطيها المجموعات، أو حسب اللغات، أو حسب نوعية المستفيدين، أو طبقاً لأي معيار آخر مناسب.

وأما بالنسبة لتعداد "الإضافات الجديدة" فيقصد به التعرف على عدد المجلدات التي يتم إضافاتها كل سنة إلى المجموعات . وهذه الطريقة سهلة التطبيق، حيث يمكن الرجوع إلى قسم التزويد ومن ثم تحديد الكمية التي أضيفت إلى المجموعات، وينطبق على هذه الإحصاءات ما ينطبق على طريقة "تعداد المجلدات" .

وأما بالنسبة لطريقة "إحصاءات الإعارة" فتهدف إلى حصر الحجم الكلي للإعارة ، أو حجم الإعارة في كل فصل دراسي، أو حجم الإعارة الخاصة بالطلاب، أو بأعضاء هيئة التدريس، أو بالموظفين، أو حجم الإعارة حسب الموضوعات، أو حسب أنواع المجموعات، ... إلخ. وفائدة هذه الطريقة هي أنها تعرفنا بنوعية وكمية المجموعات التي يحتاج إليها المستفيدون، وتعطينا انطباعاً عن نوعية رغباتهم واهتماماتهم .

والشيء الملاحظ حول هذه الطرق الإحصائية هو أنها لا تستخدم أساساً إلا لتحديد الجانب الكمي للمجموعات، مما يجعلها في بعض الأحيان عديمة الجدوى في التقييم إلا إذا استخدمت جنباً إلى جنب مع أدوات وطرق أخرى .

المعايير :

تعدّ المعايير من ضمن أدوات التقييم التي تستخدم بكثرة في المكتبات . وهي عبارة عن مقياس لتحديد الحجم الأساس للمجموعات . والفلسفة وراء إعداد وتطبيق هذه المعايير تقول إن المكتبة لا تستطيع تقديم الخدمة الكافية إذا كانت مجموعاتها أقل من الحجم الذي تحدده المعايير، ولذلك نجد أن "الحجم" هو الركيزة الأساسية التي تقوم عليها عملية التقييم .

وتتلخص عملية استخدام المعايير في تقييم المجموعات في إعداد قائمة بالحجم الحقيقي لمجموعات المكتبة، ثم اختيار المعايير المناسبة، وأخيراً مطابقة المعايير على الحجم الحقيقي للمجموعات لتحديد ما إذا كان الحجم الحقيقي أقل أو أكثر من الحجم المقترح في المعايير .

ومن أمثلة المعايير المستخدمة بكثرة في تقييم مجموعات المكتبات المعايير التي قام بإعدادها كل من كلاب (Clapp) وجردان (Gordan) ومعايير جمعية مكتبات الكليات الأمريكية . حيث حددت معايير كلاب وجردان بأن يكون الحجم المبدئي للمجموعات (٧٠٧٥٠) مجلداً، ثم يضاف إلى ذلك أعداد أخرى حسب عدد أعضاء هيئة التدريس، وعدد الطلاب، وعدد التخصصات، وعدد برامج الدراسات العليا . وفي النموذج رقم (١) تفصيلات لهذه المعايير (١٦) :

الرقم	التفصيل	عدد المجلدات
١	المجموعة الأساسية	٧٠٧٥٠
٢	عدد المجلدات لكل عضو هيئة تدريس	١٠٠
٣	عدد المجلدات لكل طالب منتظم في الدراسة	١٢
٤	عدد المجلدات لكل طالب بكالوريوس متميز	١٢
٥	عدد المجلدات لكل تخصص في مرحلة البكالوريوس	٣٣٥
٦	عدد المجلدات لكل برنامج ماجستير	٣٠٥٠
٧	عدد المجلدات لكل برنامج دكتوراه	٢٤٥٠٠

النموذج رقم (١) معايير كلاب وجردان

أما معايير جمعية مكتبات الكليات الأمريكية (١٧)، فتقترح أن تبدأ المجموعة الأساسية بـ (٨٥٠٠٠) مجلد ثم يضاف إلى ذلك أعداد أخرى حسب التفصيلات المدرجة في النموذج رقم (٢) . وتستخدم هذه المعايير مقياسًا من أربع درجات لتحديد مستوى المجموعات . فالمكتبة التي تملك ما لا يقل عن ٩٠٪ من عدد المجلدات المحددة في المعايير تأخذ درجة (أ)، بينما تعطى درجة (ب) للمكتبة التي تملك ما بين (٧٥٪ و ٨٩٪)، ودرجة (د) للمكتبة التي تملك ما بين (٦٠٪ و ٧٤٪)، ودرجة (ج) للمكتبة التي تملك ما بين (٥٠٪ و ٥٩٪) . (١٨) .

الرقم	التفصيل	عدد المجلدات
١	المجموعة الأساسية	٨٥٠٠٠
٢	عدد المجلدات لكل عضو هيئة تدريس متفرغ	١٠٠
٣	عدد المجلدات لكل طالب متفرغ للدراسة الجامعية	١٥
٤	عدد المجلدات لكل تخصص أساسي أو ثانوي	٣٥٠
٥	عدد المجلدات لكل حقل ماجستير إذا لم تتوافر في الجامعة شهادات أعلى من الماجستير	٦٠٠٠
٦	عدد المجلدات لكل حقل ماجستير إذا توافرت في الجامعة شهادات أعلى من الماجستير	٣٠٠٠
٧	عدد المجلدات لكل شهادة تخصصية تمنح في السنة السادسة (أي سنتين بعد البكالوريوس)	٦٠٠٠
٨	عدد المجلدات لكل شهادة أو تخصص في برنامج الدكتوراه	٢٥٠٠٠

النموذج رقم (٢) معايير جمعية الكليات الأمريكية

ومن ضمن ما تتميز به المعايير سهولة الحصول عليها في أشكال مطبوعة، وسهولة استخدامها وتطبيقها في أي وقت تحتاج المكتبة فيه إلى تقييم مجموعاتها . كما أنه يتولى إعدادها اختصاصيون من ذوي الخبرة، أو هيئات وجمعيات مهنية متخصصة، وبذلك تكسب قدراً عالياً من الدقة والمصداقية .

ومن المشكلات المتعلقة باستخدام المعايير في تقييم المجموعات أنها تفتقر إلى الدقة والوضوح في تعريف المصطلحات المستخدمة، مما يؤدي إلى صعوبة في اتخاذ قرار محدد أثناء عملية التقييم . فمثلاً تذكر معايير جمعية مكتبات الكليات الأمريكية أن ... على المكتبة أن تقدم بسرعة وبنسبة عالية المواد التي يحتاج إليها المستفيدون، ولكن كيف يمكن تحديد السرعة، والنسبة المذكورتين ؟ . كما يذكر لانكستر أن استخدام كلمة "مجلد" في المعايير يحتاج إلى تعريف محدد، فكيف نساوي نشرة من خمس ورقات بكتاب من مئتيْ صفحة (١٩).

ومن المآخذ الأخرى التي يوردها لانكستر نقلاً عن آخرين ما يلي :

١- أنها وصفية في طبيعتها، وتعقد عملية التقييم .

٢- أن قيمة المعيار قيمة تقديرية ، أي بمعنى أنها لا تستند إلى أساس علمي ، ولكنها تعبر عن الرؤية الشخصية لمن قام بإعداد المعايير .

٣- أنها تركز على تقييم موجودات المكتبة (TheIn - puts) وليس على الخدمات (The Out - puts) .

٤- أنها لا تشجع على التطوير والنماء حيث إن الوصول إلى المعدل الذي حددته المعايير قد يكون هو الكفاية (٢٠) .

القوائم :

الهدف الأساس من استخدام القوائم هو مقارنة ما تحويه القوائم من عناوين مع مجموعات المكتبة. ولتحقيق ذلك فلا بد من الاستعانة ببعض أدوات التقييم الكمية (الإحصائية)، التي تساعد على إيجاد العلاقة بين نسبة الكتب الموجودة في المكتبة ونسبة الكتب المدرجة في القوائم.

والقصد بالقوائم في هذه الدراسة هو كل التجميعات الببليوجرافية سواء كانت عامة أو متخصصة . ومن أمثلة ذلك القوائم العامة التي تصدر عن جمعيات وهيئات علمية مثل جمعية المكتبات الأمريكية، وفهارس المكتبات سواء كانت مطبوعة أو مقروءة آلياً، وقوائم الكتب المرجعية، والقوائم الخاصة التي تصدر عن بعض الأفراد ، والمؤسسات، أو الإدارات المتخصصة، وقوائم الإصدارات الجديدة، وقوائم أفضل مبيعات الكتب (Best Sellers)، وقوائم الدوريات العامة والمتخصصة، وقوائم الاستشهادات المرجعية .

والطريقة في استخدام هذه القوائم لأغراض تقييم المجموعات تتمثل في مطابقة القوائم مع فهارس المكتبة المزمع تقييم مجموعاتها، فإذا كانت الفهارس تضم عدداً كبيراً من العناوين المدرجة في القوائم، فهذا دليل على أن مستوى التغطية في المكتبة عالٍ، أما إذا كان العدد قليلاً فهذا مؤشر على أن المكتبة تحتاج إلى مزيد من المجموعات.

وفيما يلي عرض موجز لأهم أنواع القوائم التي تستخدم في عملية تقييم المجموعات :

القوائم العامة :

تسمى هذه القوائم في كثير من الأحيان بالقوائم المعيارية، وتستخدم أساساً لبناء المجموعات الأساسية للمكتبات . وفي الغالب ينظر إليها كدليل لشراء الكتب، ولكن يمكن استخدامها كمقياس أثناء عملية تقييم المجموعات . وعيبها الأساس يتمثل في أنها لا تصلح لتقييم مجموعات المكتبات المتخصصة . وأغلب من يقوم بإعداد هذه القوائم هي المنظمات والجمعيات المهنية لمساعدة المكتبات في تأسيس مجموعاتها، ومتابعة معدل الزيادة في المجموعات .

القوائم المتخصصة :

يستخدم هذا النوع من القوائم في تقييم المكتبات المتخصصة، أو جنباً إلى جنب مع القوائم العامة . وعادة

يقوم بإعدادها وتجميعها اختصاصيون في مجالات موضوعية محددة، وأحيانًا يتولى تجميعها بعض الهيئات والمنظمات المتخصصة . وأكثر ما يميزها عن غيرها من القوائم أنها دقيقة في محتوياتها ، ولكنها محدودة في حجمها وتغطيتها بحكم تخصصها الموضوعي .

فهارس المكتبات :

تعدّ الفهارس من أكثر القوائم استخدامًا في تقييم مجموعات المكتبات لسهولة الحصول عليها، ولتوافرها في أشكال مطبوعة، وأشكال مقروءة آليّاً على نطاق واسع . والهدف من استخدامها في تقييم المجموعات لا يختلف عن الهدف من استخدام القوائم الأخرى، حيث يتمثل في إيجاد مقارنة بين مجموعات المكتبة ومحتويات الفهارس، ومن ثم تحديد العلاقة النسبية التي تربط بينها . ولكن يجب أن تستخدم الفهارس بحذر شديد، فليس كل الفهارس صالحة لتقييم المجموعات، وما ذلك إلا لاختلاف المكتبات عن بعضها وتعدد أنواعها، وخصائصها ، ووظائفها . ولذلك يجب على المكتبة التي تريد أن تقيّم مجموعاتها أن تختار فهرس أحد المكتبات المتميزة التي تتماثل معها في الأهداف والخدمات والمستفيدين .

قوائم الدوريات :

تعدّ الدوريات مصدراً أساسيّاً من مصادر المعلومات في المكتبات، وتشكل جزءًا مهمّاً وحيويّاً من مجموعات المكتبة، وتتفوق على كثير من مجموعات الكتب بما لها من أهمية وخصوصية . ولهذا فإن تقييمها يحتاج إلى استعداد، ودقة ، وجهود مكثفة . وينطبق عليها ما ينطبق على الكتب من حيث التطوير والتقييم .

وتستخدم قوائم الدوريات في تقييم المجموعات بالأسلوب نفسه الذي تستخدم به القوائم الأخرى، حيث يتمثل في مقارنة محتويات هذه القوائم بالدوريات التي تمتلكها المكتبة لتحديد حجم ونوع الدوريات الموجودة في المكتبة مقارنة بالدوريات الموجودة في القوائم . ومن أمثلة هذه القوائم : القوائم الموحدة للدوريات التي تصدرها بعض الجهات والمنظمات المهنية والعلمية، أو القوائم المتخصصة التي يعدها بعض الأشخاص من المهنيين والاختصاصيين.

القوائم الخاصة :

عادة يقوم بعض الاختصاصيين بإعداد هذه القوائم الخاصة لمجموعة من المكتبات لمقارنة محتوياتها مع بعضها بعضًا للتعرف على مستوى التغطية الكمية والنوعية في هذه المكتبات . وفي أحيان كثيرة يستخدم هذا النوع من القوائم لتقييم مجموعات محددة داخل مكتبة واحدة مثل المجموعات الطبية، أو الهندسية ، أو التاريخية، أو ما شابه ذلك . وميزة هذه القوائم أنها تعتمد على اختصاصيين في إعدادها . وفي بعض الأحيان يتولى إعدادها بعض المكتبات أو المنظمات المتخصصة . والصفة التي تميز القوائم الخاصة عن القوائم المتخصصة هو أن القوائم الخاصة تعد أصلاً لتقييم مجموعات مكتبة واحدة، أو مجموعة من المكتبات في وقت محدد، ولأهداف محددة . وليس من الضرورة أن تكون القوائم الخاصة متخصصة ، فقد يكون الهدف منها تقييم مجموعات مكتبة عامة، أو مجموعة من المكتبات المدرسية، أو مجموعة عامة ضمن مجموعات متخصصة . ولهذا فإنها تتميز عن غيرها من القوائم الأخرى بالدقة، والخصوصية، وحسن الاختيار مما جعلها أفضل القوائم استخدامًا لتقييم المجموعات ، ولكن مشكلتها الرئيسة هي أن إعدادها يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد .

وأخيرًا؛ يمكن القول بشكل إجمالي إن الميزات لهذه القوائم تتمثل في سهولة الحصول عليها وشموليتها، وتغطيتها لموضوعات متعددة، إضافة إلى أنه يقوم بإعدادها اختصاصيون من ذوي الخبرة مما يجعل محتوياتها أكثر دقة ومصداقية . كما أنها سهلة الاستخدام، ويمكن تطبيقها أثناء عملية تقييم المجموعات دون تعقيدات تذكر . إضافة إلى أنها متوافرة بأشكال متعددة، ويمكن إعدادها حسب احتياجات كل مكتبة على حدة . هذه الميزات جعلتها أكثر استخدامًا على نطاق واسع في المكتبات . وبالرغم من تلك الميزات الحسنة

للقوائم إلا إنها لا تخلو من بعض السلبيات التي يمكن إيجازها فيما يلي :

١- قد يوجد بها نسبة من التحيز في محتوياتها، فقد يركز الجامع على بعض التخصصات على حساب تخصصات أخرى، ولذلك فإن استخدامها بهذا الشكل لا يكشف للمكتبة العناوين المهمة التي يجب أن تكون ضمن المجموعات .

٢ - بعض القوائم تنفد طبعاتها، وقد لا تعاد طباعتها مما يتعذر معه الحصول على نسخة منها .

٣ - بعض القوائم تمتاز بالعمومية، باستثناء القوائم المتخصصة، مما يؤدي إلى تجاهل الاحتياجات الخاصة لبعض المستفيدين ، أو التخصصات الدقيقة التي تحتاج إليها بعض الأقسام الأكاديمية .

٤ - لا تكشف لنا القوائم عن مضمون محتوياتها، حيث إنها تهتم فقط بسرد العناوين في كل تخصص وليس الكشف عن المضمون . أي إن التركيز ينصب على الجانب الكمي وليس على الجانب النوعي لمحتويات القائمة.

٥ - في بعض الأحيان يتم اختيار محتويات القوائم بطريقة عشوائية وغير مركزة، مما قد يؤدي إلى إهمال بعض العناوين المهمة إما سهواً وإما عمداً . كما أن بعض العناوين المدرجة في القوائم قد لا تكون لها علاقة باحتياجات ورغبات المستفيدين .

٦- من الصعب الاعتماد على القوائم في إعداد تقييم كامل للمجموعات لأنها تركز أساسًا على قياس جوانب القوة في المجموعات دون التطرق إلى تقييم المجموعات الضعيفة أو المجموعات غير المستخدمة .

الاستشهادات المرجعية :

تتلخص عملية استخدام الاستشهادات المرجعية لغرض تقييم المجموعات في تعداد عدد مرات الاستشهاد بالمقال أو الكتاب في الهوامش، أو في الكشافات والمستخلصات، أو في قوائم الكتب والدوريات ، أو في الأطروحات العلمية، ثم مقارنتها بمجموعات المكتبة . فإذا كان معظم أو جميع المراجع موجودة فعلاً في المكتبة التي استخدمها الباحث عند تأليف كتابه أو مقاله، أو أطروحته؛ فهذا يعني أن مجموعات المكتبة كانت كافية ومناسبة لأهداف الباحث، إما إذا كان جميعها أو معظمها غير متوافر في المكتبة فهذا دليل على أن هناك عدم توافق بين المكتبة والباحث بالنسبة للهدف من استخدام المكتبة، وحجم المجموعات، والتغطية الموضوعية (٢١) . ولكن المتعارف عليه أن الاستشهادات المرجعية لا تستخدم إلا لتحديد مجموعة أساسية (Core Collection) من الدوريات، أو تحديد المجموعات التي تحتاج إلى عزل أو استبعاد .

ومن المميزات الجيدة لدراسات الاستشهادات المرجعية إنها سهلة التطبيق، وتقدم بيانات منظمة تساعد على تحليل النتائج فيما بعد . كما أنها تساعد على ملاحظة التغييرات التي تطرأ على الإنتاج الفكري المنشور مع مرور الزمن، ولكن عليها بعض المآخذ منها :

١- صعوبة اختيار مصادر الاستشهادات المرجعية التي تمثل الموضوع المطلوب تقييمه ضمن مجموعات المكتبة، أو الذي يعكس احتياجات المستفيدين .

٢- لا تصلح دراسات الاستشهادات المرجعية مع كل أنواع مجموعات المكتبات .

٣- تركز الاستشهادات المرجعية على المراجع الأساسية مع إهمال المراجع الثانوية التي قد تكون ذات أهمية خاصة في المكتبة أو تشكل جزءًا مهماً من مجموعات المكتبة .

٤- قد لا تكون الاستشهادات المرجعية أفضل المراجع الموجودة للباحث في المكتبة أثناء كتابة البحث إما لعدم توافر المراجع الجيدة أثناء استخدام الباحث للمكتبة، وأما لأنها بلغات لا يجيدها الباحث . ولهذا لا يمكن أن تعدّها مؤشراً دقيقًا في كل الحالات لأفضل المجموعات التي نتوقع أن يبحث عنها المستفيدون .

دراسات الاستخدام :

تهدف دراسات استخدام المكتبة إلى التعرف على

حجم ونوعية استخدام المستفيدين لمجموعات المكتبة . وبالرغم من أهميتها وجدواها إلا أنها أقل أدوات التقييم النوعية استخداماً . وما ذلك إلا لما تتطلبه من وقت طويل وجهد كبير من أجل إعدادها وتنفيذها . إضافة إلى ذلك فإنه يصعب معها تحديد مستوى الاستخدام، أو الجزم بأن الاستفادة قد حصلت فعلاً بمجرد الاطلاع على المجموعات سواء داخل المكتبة أو عن طريق الاستعارة. ولكن أكثر ما يميز دراسات الاستخدام عن غيرها من أدوات التقييم الأخرى هو أنها أقرب إلى المصداقية، ويمكن تصميمها حسب أهداف واحتياجات كل مكتبة على انفراد . إضافة إلى أنها أداة مناسبة لتحديد المجموعات غير المستخدمة، أو المجموعات التي تحتاج إلى استبعاد .

وهناك ثلاث طرق رئيسة لتحديد استخدام المكتبة هي :

١- سجلات الإعارة .
٢- استخدام المجموعات داخل المكتبة .
٣- توافر المجموعات على الأرفف .

سجلات الإعارة :

الهدف من استخدام سجلات الإعارة في تقييم المجموعات هو التعرف على المجموعات التي تستعار خارج المكتبة . ويمكن أن تكون هذه السجلات خاصة بكامل المجموعات، أو بجزء منها، أو بنوعية معينة من المستفيدين، أو بموضوع من الموضوعات التي تغطيها المجموعات .

ومن ميزاتها ما يلي :

١- إنها تكشف لنا عن المجموعات الأكثر استخداماً وبالتالي تساعد على معرفة احتياجات ورغبات المستفيدين.
٢- تكشف لنا عن المجموعات التي لا تستخدم إلا نادراً، وبالتالي تساعد على اتخاذ قرار باستبعاد هذه المجموعات، أو إحالتها إلى الإهداء والتبادل، أو البحث عن حلول لتنشيط تداولها واستخدامها .
٣- تساعد على التعرف على نوعية وهوية المستفيدين كأن يكونوا ذكوراً، أو إناثاً، أو طلاباً، أو موظفين، أو أعضاء هيئة تدريس ....، إلخ .
٤- من السهل الحصول على بيانات الإعارة وإجراء ما يناسب ذلك من اختبارات وتحليلات .

ومن سلبياتها مايلي :

١- لا تركز إلا على المجموعات المستعارة دون التطرق إلى المجموعات التي لم تستعر، أو الاستخدامات التي تحدث خارج نطاق الإعارة .
٢- لا توضح لنا نوعية وحجم المجموعات التي يرغب المستفيد استعارتها لكنه لم يجدها ، إما لفقدانها وإما لعدم وجودها في أماكنها الصحيحة على الأرفف.
٣- لا تظهر من خلال سجلات الإعارة المجموعات التي لم تستعر . وهذا يعني أن جزءاً من المجموعات سيهمل إذا ما اعتمدنا على هذه السجلات في عملية التقييم .

استخدام المجموعات داخل المكتبة :

تهتم هذه الطريقة بتحديد مدى استخدام المجموعات داخل المكتبة، إما عن طريق دراسة المجموعات المستخدمة بكاملها أو عينة منها، أو عن طريق دراسة جميع المستفيدين، أو عينة منهم. ويمكن أن تتم هذه الطريقة بحصر المجموعات التي تركها المستفيدون على طاولات القراءة، أو بمراجعة الأرفف ومعاينة الكتب التي تم تحريكها، أو مساءلة المستفيدين عن المجموعات التي استخدموها. ومن إيجابيات هذه الطريقة أنه يمكن رصد الاستخدامات الداخلية للمجموعات في المكتبة بسهولة، ومعرفة الكتاب المستخدم والقارئ الذي استخدمه مباشرة إذا تزامن ذلك مع عملية التقييم . ولكن يؤخذ عليها أنها صعبة التنفيذ في المكتبات الكبيرة، إضافة إلى أنها قد تعطي نتائج متغيرة وغير ثابتة . فتقييم استخدام المجموعات داخل المكتبة في أوقات الذروة يختلف عن تقييمه في أوقات الندرة . كما أن هذه الطريقة لا تتعرض للمجموعات المستعارة، أو المجموعات التي لم يستطع المستفيد الحصول عليها .

توافر الكتب على الأرفف :

الهدف من هذه الطريقة هو تحديد مدى توافر

الكتب على الأرفف عند طلبها من لدن المستفيدين . وهذا يتضمن مراقبة سلوكيات المستفيدين ، ورصد الإجراءات التي يتبعونها في الحصول على الكتب من الأرفف، ومحاولة التعرف على أسباب عدم توافرها عند الطلب . ويمكن أن تتم هذه الطريقة عن طريق المقابلات الشخصية، أو الاستبانات، أو عن طريق بطاقات تعد خصيصًا لهذا الغرض . وعندما يتم جمع المعلومات المطلوبة تخضع هذه المعلومات للتحليل والتفسير من أجل التعرف على أسباب فشل المستفيدين في الحصول على الكتب المطلوبة، فقد تكون الأسباب عدم امتلاك المكتبة للكتاب المطلوب، أو ضياعه، أو إعادته إلى مكان آخر غير مكانه الصحيح على الأرفف، أو نقله إلى قسم الحجر، أو إحالته للترميم والصيانة، أو إعارته إلى شخص آخر خارج المكتبة . وقد تكون الأسباب عائدة إلى المستفيد نفسه، فقد لا يكون لديه معرفة كافية باستخدام الأرفف، أو أنه أخطأ في نقل أرقام التصنيف أو أية معلومات ببليوجرافية خاصة بالكتاب المطلوب .

ومع أن هذه الطريقة تتميز عن غيرها من الطرق التقييمية السابقة برصد أنواع وأسباب فشل المستفيدين في العثور على الكتب المطلوبة، إلا أن إعدادها وتنفيذها يحتاج إلى جهد ووقت . إضافة إلى أنها لا تركز إلا على المستفيدين من المكتبة، ونجاحها يعتمد أساسًا على مدى تعاون المستفيدين مع من يقوم بتنفيذها .

استطلاعات الرأي :

الهدف الأساس من استطلاعات الرأي هو معرفة آراء المستفيدين حول مجموعات المكتبة ، وتحديد ما إذا كانت المجموعات تلبي احتياجاتهم ورغباتهم . ويمكن الحصول على المعلومات المطلوبة إما عن طريق المقابلات الشخصية، وإما عن طريق الاستبانات .

والميزة الأساسية لاستطلاعات الرأي هي أنها تركز مباشرة على المستفيدين، وتستخدم لقياس الجانب الكمي والنوعي للمجموعات من وجهة نظرهم . ويمكن أن تقدم معلومات متعددة ومفيدة إما لإعادة صياغة أهداف المكتبة، أو إلغاء بعض الخدمات، أو تطوير الخدمات الجارية . كما يمكن استخدامها من وقت إلى آخر لتوثيق العلاقة مع المستفيدين ، والتعرف على أية تغييرات أو تطورات تحدث على رغباتهم واحتياجاتهم مع مرور الزمن .

وبالرغم من تلك الميزات الجيدة لاستطلاعات الرأي؛ فإنها تواجه كثيرًا من المشكلات، ولها بعض السلبيات من أهمها ما يلي :

١- تحتاج أدوات الاستطلاع المتمثلة في المقابلات الشخصية، والاستبانات إلى وقت طويل وجهد كبير من أجل إعدادها، والتأكد من مصداقيتها، وصلاحية استخدامها .

٢ - استطلاعات الرأي قد لا تكشف لنا الحقيقة بكاملها خاصة ما يتعلق بالاحتياجات والاستخدامات الفعلية للمستفيدين، على اعتبار أنهم قد لا يظهرون حقيقة ما يريدون عندما تطرح عليهم أسئلة المقابلات الشخصية، أو عندما يطلب منهم الإجابة عن أسئلة الاستبانات .

٣- قد لا يتعاون بعض المستفيدين مع القائمين بهذه الاستطلاعات، أو قد يقدمون معلومات غير صحيحة بحيث تؤثر على مصداقية النتائج فيما بعد .

٤- قد يبدي بعض المستفيدين توقعات ومطالب أكثر مما تستطيع أن تحققه لهم المكتبة . وعندما لا تتحقق توقعاتهم ومطالبهم قد يصابون بالإحباط، وربما يضعون حداً لتعاونهم وتعاملهم مع المكتبة .

٥- تركز على آراء وتصورات المستفيدين، وليس على خبراتهم وممارساتهم الفعلية في استخدام مجموعات المكتبة .

٦- لا تتعرض بأي حال من الأحوال لآراء واحتياجات الذين لا يستخدمون المكتبة .

٧- قد لا تعطي تقييمات دقيقة لمجموعات المكتبة نظرًا لتباين مستويات وتخصصات المستفيدين، فقد تكون المجموعات كافية من وجهة نظر أحدهم، ولكنها

قاصرة من وجهة نظر مستفيد آخر حسب التخصصات، والمستويات الفكرية والعلمية لكل منهما .

الفحص المباشر للمجموعات :

يقصد بالفحص المباشر للمجموعات معاينة كامل المجموعات أو جزء منها على الأرفف مباشرة بواسطة اختصاصي موضوعات، من أجل تحديد ما إذا كانت المجموعات الموجودة على الأرفف كافية ولها علاقة بأهداف المكتبة، مع تحديد المجالات التي تغطيها، واللغة المكتوبة بها، وعمق محتوياتها الفكرية والعلمية، ومستوى أهميتها ضمن المجموعات الكلية للمكتبة. ويمكن لاختصاصي الموضوعات أن يسجل ملاحظته حول الحالة المادية للمجموعات ، فقد يحتاج بعضها إلى تجليد، أو ترميم، أو استبعاد. كما أن معاينته للمجموعات مباشرة قد تؤدي إلى قرارات مهمة في أقسام التزويد . فعلى سبيل المثال إذا كانت الأرفف فارغة، فقد يدل ذلك على استخدام مكثف للمجموعات، مما يستدعي التزويد بمواد ونسخ جديدة، إلا إذا ثبت خلاف ذلك كأن تكون المجموعات مستبعدة أو محالة إلى الترميم والصيانة . وإذا كانت الأرفف مليئة بالمجموعات، فقد يدل ذلك على ضعف في استخدامها، أو عدم الحاجة إليها، الأمر الذي قد يؤدي إلى استبعادها واستبدالها بمجموعات أخرى مناسبة وملائمة لاحتياجات المستفيدين . ولكن هذا الإجراء يتطلب من اختصاصي الموضوعات أن يكون على علم مسبق بحجم ونوع المجموعات التي تمتلكها المكتبة .

ومن المزايا الحسنة لطريقة الفحص المباشر للمجموعات ما يلي :

١- يمكن أن يقوم بها شخص واحد دون حاجة إلى مساعدة من موظفي المكتبة أو المستفيدين .

٢- سهلة التطبيق ويمكن الحصول على النتائج بسرعة خاصة إذا كان اختصاصي الموضوعات من ذوي الخبرة في هذا المجال .

٣- لا تؤدي إلى إرباك في عمل المكتبة أو تعطيل في استخدام الأرفف خاصة إذا كان التقييم يخص جزءاً محدوداً من المجموعات .

٤- قابلة للتطبيق في أية مكتبة بغض النظر عن نوعها، أو حجمها .

وبالرغم من هذه الحسنات لفحص المجموعات مباشرة، فهناك بعض السلبيات نوردها فيما يلي :

١- لا يمكن أن يقوم بهذا التقييم بفاعلية ودقة إلا اختصاصي موضوعات، وهذا الاختصاصي قد لا يكون متوافر في المكتبة، وقد لا يتيسر الحصول عليه إلا من خارجها . وعندما تكون المكتبة كبيرة وتضم موضوعات متعددة ومتباينة فإنها تحتاج إلى عدد من الاختصاصيين مما يجعل عملية التقييم أكثر تعقيداً وأعلى تكلفة .

٢- يعتمد التقييم على مرئيات اختصاصي الموضوعات، ولهذا فإن مرئياته قد يكون فيها نسبة كبيرة من التحيز واللامصداقية، مما يترتب عليها أخطاء في التقييم أو أخطاء في القرارات التي سوف تتخذ تبعاً لذلك .

٣- لا تؤدي هذه الطريقة إلى تقييم كامل ودقيق للمجموعات إلا إذا استخدمت معها طرق تقييمية أخرى مثل استطلاعات الرأي، ودراسات الاستخدام، والقوائم . حيث يمكن استخدام استطلاعات الرأي، ودراسات الاستخدام لتحديد نوع الاستخدام للمجموعات غير الموجودة على الأرفف، ويمكن استخدام القوائم لتحديد الجانب النوعي للمجموعات الموجودة على الأرفف .

الخاتمة والتوصيات :

كان الهدف الأساس من هذه الدراسة هو عرض وتحليل طرق وأدوات تقييم مجموعات المكتبات الجامعية مع بيان ميزات وعيوب كل منها . وقد تبين من هذا العرض والتحليل أن طرق وأدوات التقييم كثيرة ، وتستخدم لأهداف عديدة من أهمها تحديد المستوى الكمي والنوعي للمجموعات .

ومع أن تقييم المجموعات عملية مهمة إلا أن بعض

المكتبات تتفاداها بحجة أنها مكلفة وأنها تحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد . إضافة إلى أن لكل طريقة من طرق التقييم عيوبًا وسلبيات قد تحد من فاعليتها . وأبرز ما يعاب على الطرق النوعية (Qualitative) هو أن نتائجها تعتمد أساسًا على مرئيات المقيِّم . بما قد يكون فيها من تحيز ومبالغة . ويعاب على الطرق الكمية (Quantitative) أنها تركز على البيانات الرقمية دون إيضاح للمستوى النوعي (Quality) للمجموعات .

ولذلك يرى الباحث أن أفضل طرق التقييم هي الطرق التي تجمع بين الجانب الكمي والجانب النوعي للمجموعات. ويمكن أن يتحقق ذلك باستخدام ما لا يقل عن طريقتين أو أداتين من طرق وأدوات التقييم الكمية والنوعية في آن واحد، وذلك لضمان دقة وشمولية التقييم، وتقليص العيوب المصاحبة لكل طريقة أو أداة إلى أدنى حد ممكن .

وإذا أرادت المكتبة إجراء تقييم شامل لمجموعاتها فيمكن لها أن تتبع الخطوات التالية :

١- إجراء حصر كامل لمجموعاتها، وجمع حقائق وبيانات كاملة عن المجموعات، وما يتعلق بها من أنظمة، وإجراءات ، وخدمات ... لكي يتضح الوضع الحقيقي للمجموعات وبالتالي يمكن مقارنتها بنتائج التقييم فيما بعد بكل دقة وسهولة . كما يجب أن يكون للمكتبة خطة مكتوبة لكي يتم في ضوئها تنفيذ عملية التقييم .

٢- تحديد الجهة التي سوف تتولى عملية التقييم . فقد تكون قسم تطوير وتقييم المجموعات في المكتبة، أو أحد الاختصاصيين، أو أحد الخبراء من داخل المكتبة أو من خارجها، أو لجنة من داخل المكتبة أو من مكتبات أخرى، أو من منظمات وهيئات مهنية يتم تشكيلها بناء على اتفاق مسبق مع المكتبة .

٣- تحديد طرق وأدوات التقييم التي سوف تستخدم لتقييم المجموعات، مع شرح إجراءات إعدادها وتنفيذها .

٤- تحديد مصادر التمويل اللازم لإعداد وتنفيذ عملية التقييم، فقد لا تسمح ميزانية المكتبة بتغطية تكاليف هذه العملية مما يضطرها إلى البحث عن مصادر أخرى بديلة من داخل الجامعة أو من خارجها. ويقترح الباحث أن تعد المكتبة عملية تقييم مجموعاتها في شكل مشروع بحثي ثم ترفعه إلى المجلس العلمي بالجامعة ليتولى عملية تمويله من المصادر المالية المخصصة للأبحاث .

والحقيقة أن الخطوات السابقة تحتاج إلى تفصيلات كثيرة لا يتسع لها المجال في هذه الدراسة، ولكن يمكن أن تستخدم كإرشادات عامة حول عملية تقييم مجموعات المكتبة، إضافة إلى المقترحات والتوصيات التالية :

١- من الواجب أن تتم عملية التقييم وفق خطة مكتوبة للمكتبة لأنها الأساس الذي يعتمد عليه في تقييم المجموعات، وبدون هذه الخطة تصبح عملية التقييم قاصرة عن كشف الوضع الذي يجب أن تكون عليه المكتبة طبقًا لما تتضمنه الخطة من أهداف وإمكانات .

٢- يجب أن لا ينظر إلى تقييم المجموعات كعملية منفصلة عن بقية العمليات الأخرى لتطوير المجموعات والمتمثلة في التخطيط ، والاختيار، والتزويد، والمراجعة، لما لها من تأثير كبير على سير وتنفيذ هذه العمليات .

٣- من الضروري جداً أن تتبنى المكتبات بشكل جدي فكرة التعاون والتنسيق فيما بينها لتبادل الخبرات والتجارب، والمشاركة في المصادر والإمكانات . فيمكن إبرام اتفاقيات مشتركة لتطوير وتقييم المجموعات، والاستفادة من خبرات اختصاصيي الموضوعات، وتبادل الخطط والبرامج، وإقامة مشروعات تعاونية للاشتراك في مصادر المعلومات، وتوحيد وتسهيل إجراءات الإعارة، والاطلاع المتبادل على الخطط والبرامج المستقبلة .

٤- نظرًا لوجود تغييرات وتطورات مستمرة في المعرفة البشرية، والتخصصات العلمية، والمناهج والبرامج الدراسية، واحتياجات ورغبات المستفيدين، فمن الواجب أن تقوم المكتبات بتقييم مجموعاتها بشكل دوري ومنظم لكي تجاري تلك التطورات والتغييرات بما يخدم أهدافها وأهداف المستفيدين منها .

الهوامش والمراجع

١- فالح عبدالله الغامدي "تطوير وتقييم مجموعات المكتبات الجامعية بالسعودية : دراسة استطلاعية"، (مقبولة للنشر **في عالم الكتب**) .

2 - Paul H. Mosher, " Collection Evaluation in Research Libraries:The Search For Quality, Consistency and System in Collection Development". **Libr`ry Resources and Technical Services**, 23, (Winter), 1979, pp. 17 - 18.

3 - Harry Bach , "Acquisiton Policy in the American Academic library" **College and Research libraries** . 18 (November, 1957) , p . 444 .

4 - Douglas Waples and H . Lasswel , **National Libraries and Foreign Schoolarship** Chicago : University of Chicago press, 1936, pp . 70 - 71 .

5 - George S . Bonn , " Evaluation of the Collection ," **Library Trends** , 22 (January , 1944) , pp . 265 - 304 .

6 - F . W . Lancaster , **The Miasuriment and Evaluation of Library Services** , Washington : Information Resources press, 1977 .

7 - R . L Burr , " Evaluation of Library Collection : A case Study," **Journal of Academic Librarianship** , 5, (1979), pp . 256-266.

8 - S . E . Ifidon, " A Quantitative Assessment of Negerian University Library Collections in the Humanities and the Social Sciences in Relation to Post - graduate Research" , (P . h . d) Dissertation , Uneversity of Ibadan, Nigeria, 1977 .

9 - Cynthia Comer , " List - Checking as a Method for Evaluating Library Collectiomd" , **Collection Building** , 3, No, 3, (1981), pp. 26 - 34 .

١٠- محمد صالح عاشور، **المكتبات الجامعية بالمملكة العربية السعودية : حاضرها ومستقبلها**، الرياض: دار المريخ للنشر، ١٣١٢هـ .

11- Tina E. Chrzastowski, "Journal Collection Cost - Effectiveness in an Academic Chemistry Library : Results of a Cost - Use Survey at the University of Illinios" , **Collection Management** V. 14, (1/2), (1991), p. 85.

12- Marilyn von Seggern , " Scientists, Information Seeking and Reference Services" , **The Reference Librarian,** 49/ 50, (1995), pp. 95 - 104.

13- Mary B. Floster, "Information Seeking Patterns : Social Sciences" , **The Referecce Libraran,** No.49/50, (1995), pp. 83-93.

14- Cherely Ann Mc Carthy, "Students Perceived Effectiveness Using The University Library, **College and Research Libraries,** V. 56, No. 3, (May, 1995), p.221.

15- Daine Schmitd , E . B. Davis, and R. Jahr, Biology Journal Use At An Acadmic Library : A Comparisision Of Use Studies" , **Serials Review,** V. 20, No. 2, (Summer, 1994) p. 46.

16- F . W. Lancaster, **If Yo want to Evaluate your Library.,** Champaign, Ill: Unversityh of Illinios, 1988, P. 18.

١٧- محمد صالح عاشور، ص١٧١ .

18- F. W. Lancaster, **If Yo want to Evaluate..,** p. 19 .

19- Ibid, P . 19.

20- F . W. Lancaster, **The Measurement And Evaluation Of Library Services,** p.289.

21- George . Bonn, p. 279 .

عالم الكتب

زينب عصمت راشد

المؤرخة التي رحلت في صمت

محمد مؤنس أحمد عوض

كلية اللغة العربية – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – أبها

في مثل هذه الأيام، وفي أوائل الصيف قبل الماضي عام ١٩٩٥م رحلت عن عالمنا مؤرخة مصرية بارزة في مجال التاريخ الأوربي الحديث هي زينب عصمت راشد ، وكالعادة المؤلمة لم تلتفت وسائل الإعلام إلى ذلك الحدث ولم يتم إبرازه بأية صورة . وكأن قدر المؤرخين العرب البارزين في عصرنا الحالي أن يتجاهلهم العصر، وكأن ذلك عقاب لا أفهم معناه لكل بارز نابه دفع عمره في تحصيل العلم دون أن يكون له هدف كبير آخر سواه .

وبالأمس كتبت في تلك الزاوية نفسها، وهي تكريم الراحلين من المؤرخين في صورة علي الغمراوي ونشرت عنه مقالة في مجلة عالم الكتب . والآن أتصدى للتصدي للنسيان الذي بدأ يفتك بذكرى أستاذة نادرة المثال ومؤرخة راهبة في محراب العلم ألا وهي زينب عصمت راشد .

والواقع أنني لم أكن من تلاميذها في مرحلة الدراسات العليا إذ باعدت بيننا العصور، فعلى حين كانت الراحلة في مجال التاريخ الحديث ، اتجهت بصورة مباشرة إلى دراسة العصور الوسطى وعلاقة الغرب الأوربي بالشرق الأدنى الإسلامي في تلك العصور .

وعلى الرغم من ذلك، فقد درست لي الراحلة الفاضلة في العام الأول من دراستي بقسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس، ولذلك أستطيع القول إنني أكتب هذه الصفحات من خلال رؤية شاهد عيان لمؤرخة كبيرة رحلت في صمت حائر .

والجدير بالذكر أن زينب عصمت راشد قد ولدت في مدينة الإسكندرية في ١١ يناير ١٩١٩م في العام نفسه الذي اندلعت فيه ثورة مصر ضد الاحتلال البريطاني بقيادة سعد زغلول، وقد حصلت الراحلة على ليسانس الآداب قسم التاريخ من جامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٢م، كما أنها حصلت على الدكتوراه من جامعة ليڤربول بالمملكة المتحدة عام ١٩٤٩م، ثم عادت لتخدم وطنها بأن عملت مدرسة بقسم التاريخ بكلية الآداب – جامعة إبراهيم (أي جامعة عين شمس) في عام ١٩٥٠م، وقد تدرجت في السلك الجامعي فوصلت إلى درجة أستاذ مساعد بالكلية نفسها عام ١٩٥٦م ، وأستاذ بكلية البنات الإسلامية ورئيسة لها في المرحلة من ١٩٦٣ إلى ١٩٧٧م .

ومن الملاحظ أن مؤرختنا الفاضلة لم تقصر نشاطها على أرض الكنانة ، بل إنها اتجهت إلى العمل في أرض الحرمين الشريفين، ولذلك نجدها قد عملت في وظيفة رئيس مركز الدراسات الجامعية للبنات بجامعة الرياض في المرحلة من ١٩٧٧ إلى ١٩٨٠م .

ومن الممكن القول إن ابتعاث زينب راشد إلى إنجلترا قد أثقل تكوينها العلمي بدرجة كبيرة، ونعرف أنها كتبت رسالتها لنيل درجة الدكتوراه عن صلح باريس عام ١٧٦٣م 1763، The Peace of Paris؛ وهناك طالعت العديد من دور الكتب والوثائق سواءً الإنجليزية أو الفرنسية من مكتبة الوثائق الرسمية Public Recard office وكذلك مكتبة

المتحف البريطاني British Mwseum ، ومكتبة جمعية الدراسات التاريخية بلندن Institute of Historical Research ، وكذلك مكتبة وزارة الخارجية بباريس Bibliotheque des Affaires Etrangeres ، ثم المكتبة الوطنية بباريس Bibliotheque Nationale .

أما مؤلفات زينب عصمت راشد فهي قليلة، ولعل هناك عدة أسباب وراء ذلك ، فهناك نوع من المؤرخين يجعل كتبه في صورة تلاميذه ولا يعنى بالدرجة الأولى في أن يؤلف العديد من المؤلفات ، كما أن العمل الإداري أيضًا لا يغفل أثره في هذه الزاوية، والذي لا ريب في أنه يأخذ الكثير من وقت المؤرخ وجهده .

والحقيقة أنه ليس يعيب المؤرخ قلة مؤلفاته، إذ إن عملاً تاريخيًا واحدًا قد يحفظ اسم أحد المؤرخين لزمن ممتد ولا يحقق له الهدف نفسه كل مؤلفاته . وهكذا فإن قلة مؤلفات مؤرختنا زينب راشد هو دليل على القلة القيمة، وليست الكثرة التي لا يهتم أصحابها بتجويد أعمالهم .

على أية حال؛ فإن مؤلفات المؤرخة الراحلة هي كالآتي:

١- **كريت تحت الحكم المصري ١٨٣٠ - ١٨٤٠م**، وقد صدر الكتاب عن الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عام ١٩٦٤م .

٢- **المختصر في تاريخ أوربا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر .**

٣- **تاريخ أوربا في القرن التاسع عشر .**

وقد صدر الكتابان الأخيران عن دار نشر سعيد رأفت بالقاهرة في الثمانينات .

أما الجانب الشخصي في حياتها وسلوكها ؛ فأعرف عن يقين أنها تمتعت بخلق رفيع، واهتمام بالعلم والتدريس لتلاميذها، وفي هذه الناحية تمتعت بقوة ذاكرة فولاذية وفي الحين نفسه تواضع جم، وعندما كنا نحدثها عن قوة تلك الذاكرة التي وهبها الله تعالى لها، كانت تذكر لنا أنها كررت تلك الأحداث طوال ربع قرن كامل أو يزيد؛ ولذا فإن تاريخها لا يزال ينبض بالحركة في ذهنها .

لم تكن زينب عصمت راشد راضية تمام الرضا عن واقعنا العربي ، وكثيرًا ما قرعت بعض تلاميذها الذين يتأخرون عن محاضراتها أو لا يعطون لحديثها الانتباه الواجب وطالبتنا بأن نأخذ عن الأوربيين دقة العمل ، والالتزام ، وعدم الخلط بين الجد واللهو .

ولا نغفل زاوية جديرة بالاهتمام في صورة وفاء المؤرخة البارزة لأساتذتها، من ذلك أنها عندما أصدرت أحد كتبها جعلت الإهداء إلى أستاذها الراحل شفيق غربال – طيب الله ثراه – وفاءً لما قدم لها من نصح وإرشاد على نحو أثر بعمق في حياتها العلمية في مجال الكتابة في التاريخ الحديث .

اتسمت علاقة الراحلة بزملائها من مؤرخي التاريخ الحديث بالود والاحترام العميقين، خاصة عبدالعزيز سليمان نوار، وكذلك عبدالحميد البطريق؛ والواقع أن البطريق قد لاحظت فيه الحزن العميق على رحيل زميلته المؤرخة البارزة زينب عصمت راشد واشتكى لي من ندرة الوفاء الذي كاد يفتك بسيرة أستاذتنا الفاضلة .

تلك سطور قليلة عن مؤرخة راحلة حتى يتذكر الجميع أمرها، ولا تضيع في غياهب النسيان، وأرى أن الوفاء لها يدعوني دومًا أن أذكرها وأكتب عنها، طيب الله تعالى ثراها وأسكنها فسيح جناته (١) .

الهوامش والمراجع

١- أفدت في إعداد هذه المقالة الصيف قبل الماضي من كتاب عبدالمنعم إبراهيم الجميعي ، **اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر** .- القاهرة : ١٩٩٤م، ص ١٤٣ - ١٤٤، بالإضافة إلى التواصل بالمؤرخة الكبيرة الراحلة .

الإعلام بمن حلَّ بمراكش وأغمات من الأعلام للمراكشي *

مراجعة

نجاة المريني

كلية الآداب - الرباط - المملكة العربية المغربية

المراكشي ، العباس بن إبراهيم / الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام ؛ تحقيق عبدالوهاب بن منصور .- الرباط : المطبعة الملكية ، ١٩٧٤ - ١٩٨٣م ، ١٠ مج .

العباس بن إبراهيم المراكشي من الفقهاء القضاة الذين اشتهر أمرهم بمدينة مراكش، أخذ العلوم الدينية واللغوية - كما كان عليه الأمر في ذلك الوقت - على شيوخ وعلماء مراكش في مساجدها ومدارسها، وأجازه علماء عصره كالشيخ الكتاني والقادري من المغرب، والشيخ محمد حسين ويوسف الدجوي من مصر.

ترجم له إدريس بن الماحي الإدريسي في كتابه معجم المطبوعات المغربية (١) ، فقال عنه: «الفقيه العلامة النوازلي المؤرخ المطّلع الكاتب البارع المؤلف المشارك المتفنن المتحلي بمحاسن الشمائل» .

وقال عنه عبدالوهاب بن منصور في مقدمة تحقيقه لكتاب الإعلام (٢) : «ولد بمراكش سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، ونشأ بها، بادي النباهة، ظاهر النجابة» .

اشتغل في بداية حياته بالتدريس في مسجد رياض العروس، ثم رتّب في المرتبة الثالثة في هيئة العلماء بمراكش، إلى أن عُيّن كاتبًا بالبنيقة الأولى (التي تعني ديوان الوزير الأول) في عهد السلطان مولاي عبدالحفيظ .

وقد استفاد الفقيه المراكشي من إقامته في مدينة فاس في خدمة السلطان مولاي عبدالحفيظ، إذ عَدَّ ابن منصور هذه الفترة «من أخصب سني حياة المؤلف، لأنه استطاع خلالها أن ينمِّي معارفه ويظهر مواهبه، ويلفت إليه الأنظار، ويطلع على ألوان من الحياة وأوجه من المدنيّة لم يتح له أن يطلع عليها قبل الاستقرار بفاس» (٣).

وبإعلان الحماية الفرنسية على المغرب سنة ١٩١٢م، عاد المؤرخ ابن إبراهيم إلى مراكش لينتظم في سلك التدريس، ويعمل في الإفتاء والتوثيق مدة ينتقل بعدها إلى مدينة الرباط بعد تعيينه قاضيًا بمجلس الاستئناف الشرعي سنة ١٩١٥م، ثم قاضيًا بمدينة سطات والجديدة، وأخيرًا قاضيًا بمدينة مراكش، إلى أن أحيل على التقاعد قبل وفاته بقليل، وكان ذلك سنة ١٩٢٩م .

وبالرغم من اشتهار أمر المراكشي مؤرخًا، فقد ألف في الفقه والحديث والأدب، إضافة إلى كتابه التاريخي الموسوعة - موضوع هذا الحديث - الإعلام .

وقد أورد ابن منصور أثناء الحديث عن مؤلفات المراكشي ثبتًا بأسمائها كالآتي (٤) :

- الأجوبة الفقهية مع الأحكام المسجلة ، في أربعة أجزاء .
- إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال، وهو شرح لمنظومته المسماة «تنظيم درر الجمال، في مناقب أولياء مراكش سبعة رجال»، طبع نهفه الأول بفاس طبعة حجرية .
- الألماس فيمن اسمه العباس .
- الإمتاع بحكم الإقطاع .
- تاريخ ثورة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ محمد مصطفى ماء العينين .

- حاشية على صحيح مسلم لم تخرج من مسوّدتها .
- ديوان شعر .
- القضاء على الإسلام بيد أبنائه .
- شرح منظومة السلطان مولاي عبدالحفيظ العلوي لجمع الجوامع .

كتاب الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام :

كتاب الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام موسوعة تاريخية مهمة في التراجم، استقى المؤلف مادتها من مصادر كثيرة مخطوطة ومطبوعة، واستغرقت مدة تأليفهما يزيد على خمسين سنة «مطالعًا كلّ ما يقع بين يديه من الكتب والأوراق والظهائر والرسوم لينتقي منها كل ما يمتّ بسبب وثيق أو واهٍ إلى مراكش وأغمات، ومن ولد بهما أو زارهما من الملوك والأمراء والوزراء والعلماء والأدباء والأولياء والصلحاء وحتى الحمقى والمجاذيب» كما أشار إلى ذلك عبدالوهاب بن منصور في مقدمة تحقيقه للكتاب (٥) .

اهتم المراكشي بتاريخ مدينته وبعلمائها وصلحائها، فنظم قصيدته « درر الجمال في مناقب أولياء مراكش سبعة رجال» (٦) . ثم وضع لها شرحًا سماه «إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال» (٧)، ولعله تنبه للإهمال الذي عليه تاريخ المغرب، فلم يحظ أدباؤه وشعراؤه ومؤرخوه بما يستحقونه من عناية ، فتحفظ كتب التاريخ المفقودة ودواوين الشعراء الضائعة إنتاجهم ، فانصرف اهتمامه إلى التأريخ لمدينة مراكش والترجمة لصلحائها وعلمائها وشعرائها في منظومته وشرحه السابق الذكر، ولعل تقريظ الشيخ عبد الحي الكتاني لهذا العمل كان حافزًا للمؤرخ المراكشي على كتابة موسوعته التاريخية «الإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام» فيما بعد.

أما قصة تأليف الكتاب، فقد لخصها محققه ابن منصور اعتمادًا على ما جاء في مقدمة المؤلف، فباقتراح وطلب من الشيخ عبدالحي الكتاني في تدوين مناقب رجال مراكش، والترجمة لعلمائها وأعلامها «لم يسع قاضي مراكش عباس بن إبراهيم إلاّ أن يستجيب لداعي الشيخ عبدالحي ويعمل بإشارته؛ لأنه رأى أنّ عزمات الرجال تظهر نتائجها بكثرة الأشغال، والهمم تجود بمداومة العمل، وتقصر عند سلوك طرق الإهمال والعلل» (٨) .

وقد طبع الكتاب في حياة المؤلف في خمسة أجزاء، بالمطبعة الجديدة بفاس ما بين سنتي ١٩٣٦ - ١٩٣٨، وتضمّ هذه الأجزاء المقدمة وتراجم الأحمدين والمحمدين، ويعزو ابن منصور عدم طبع الأجزاء الباقية إلى نشوب الحرب العالمية الثانية .

كما طبع الكتاب طبعة ثانية بتحقيق ابن منصور بعد أن أذن جلالة الملك الحسن الثاني بطبع الكتاب ونشره كاملاً تلبية لالتماس ابن المؤلف (يوسف) في الموضوع .

وقد استغرق تحقيق الكتاب كاملاً وطبعه فيما بعد ما يزيد على تسع سنوات، إذ صدر الجزء الأول منه عن المطبعة الملكية بالرباط سنة ١٩٧٤، والجزء العاشر الأخير سنة ١٩٨٣ (٩) .

أمّا اسم الكتاب فهو متعدد كما يشير إلى ذلك المؤلف: «ووسمتُه حين رسمته بالإعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام وملوك الإسلام، ولك أن تترجمه بحلل الزراكش في تاريخ أغمات ومراكش، ولك أن تعلمه بالابتهال والاهتمام، بذكر من حل أغمات ومراكش من الأعلام وملوك الإسلام . ولك أن تنعته بالترجمان المعرب بمن حلّ من الأعيان مراكش وأغمات من عواصم المغرب... إلخ» (١٠)، وتتعدد الأسماء إلى أن تصل إلى عشرة، وكلها أسماء مسجوعة على طريقة القدماء في تحلية أسماء مؤلفاتهم .

أما تأليف الكتاب، فكان بإشارة من الشيخ عبدالحي الكتاني - كما سبق - ودعوة المؤلف إلى تأليف كتاب ثانٍ يعزّز به كتابه الأول: «إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال» ، ويظهر أن تقريظ الشيخ الكتاني لهذا الكتاب كان الدافع الأول للتأليف، فعنه يقول : «وموضوعه الأشرف الأجلى الأحلى الأغلى الذي هو ذكر آثار من مضى من السلف، وما ينبغي أن ينهج على سبيله من وُفّق من الخلف» (١١) .

ولاشك أن المؤرخ المراكشي قد اقتنع بإشارة الشيخ

الكتاني، فنجده يتحدث عن قلة التصانيف المصنفة في تاريخ مراكش ورجالها، وعن تقصير المغاربة في التأريخ لبلدهم ورجالهم لذلك « اقتفيت إشارته – أي الكتاني – راجيًا حصول المطلوب على وفق الأمل، مرتبًا على حروف المعجم ليسهل به كشف ما أعجم مقدمًا الأحمدين ثم المحمدين» (١٢) .

وإذا كان المؤلف قد اعتمد على مصادر كثيرة في الفقه والتأريخ والجغرافيا والأنساب والشعر والأخبار وغيرها لتقديم تراجمه، فإنه ينبّه إلى اعتماده على مؤلفات المترجم لهم في استخراج ترجمة حياتهم إذْ «أنه لا يجد في ذكر المترجم ممن تقدم زمانه أو تأخر إلا سطرًا أو نحوه، ثم إنني أذكر في ترجمته الورقة، فأزيد وأستخرج ذلك من تأليف له إن وجدته، وقد لا أجد له ترجمة فأستخرجها له من كلامه» (١٣) .

منهج المراكشي في كتابه الإعلام :

يفصّل المراكشي الحديث عن المنهج المتبع في تأليف الكتاب، حيث رتب تراجمه على حروف المعجم مقدمًا الأحمدين والمحمدين، وإن كان قد سلك في ترتيب تراجمه منهج أصحاب التراجم القدامى كابن الأبار وابن الخطيب وابن فرحون وابن القاضي، فإنه قد اختلف عنهم في ترتيب حروف الأسماء مع مراعاة تقديم الأقدم تاريخًا إن تعددت الأسماء، مترجمًا لرجال أغمات مع رجال مراكش، ولكل من «وجده في الكتب منسوبًا لمراكش وإن لم يقف على دخوله لها وولد بغيرها، وإنما نسب إليها لكون أصله منها» (١٤) .

كما أن كتاب الملوك والخلفاء حظوا بعناية المؤلف فترجم لهم «مبينًا من اشتهرت كمالاته، وخفقت على رؤوس الأعلام راياته، مظهرًا لشأنه بأحسن تنبيه، منوهًا لقدره بأرفع تنويه، مصرحًا آخر الترجمة بمن ذكره جامعًا لما لديهم في ترجمته من الفصول المحررة» (١٥) .

ويعتذر المؤلف عن تقصيره إن كان قد أغفل ذكر بعض العلماء والصلحاء في كتابه، مبررًا لذلك ببعده عن مسقط رأسه مراكش، إذ يقول: «وإنما ذكرت ما وقفتُ على اسمه ضمن التواريخ والفهرسات وغيرها الحاصلة لدي... لاسيما وأنني يومئذٍ عام سبعة وعشرين وثلاثمائة وألف /١٩٥٩م عن مراكش مسقط رأسي بعيد غريب، مقيم بفاس طهّرها الله من الأرجاس، وعن أهلي وكتبي التي ألفْتُ مطالعتها ومراجعتها جنيب» (١٦) .

ويلخص المؤلف طريقته في تأليف كتابه الإعلام في الفصل الرابع من المقدمة فيقول بعد أن يتحدث عن لغة الكتاب وعبارته، فيقول: «وعبارة كتابنا هذا سهلة واضحة لا تعقيد فيها . يتأتّى فهمها من كلّ أحد على اختلاف طبقات الناس ففيه من الألفاظ ما يفهمه العامة ولا تنبو عنه الخاصة، فكل قارئ يطالع فيه ما يلذُّ له ويفيده، وقد سلكنا فيه الطريقتين في التصنيف :

الطريقة الأولى: طريقة السبك في جمع المنقول ثم بسطها بأوجز عبارة وألطف إشارة، وهي وإن كانت أتعب وأشق، أدق نظرًا وأحق .

الطريقة الثانية: طريقة التناسب : أي ترتيب ما يراد من النقول بعينها ونظمها في سلك أساليب المطالب المرادة بزيادة شيء عليها أو نقصه منها، إمّا بعزو أو دونه على ما هو المعهود في ذلك » (١٧) .

ويرى المؤلف أن «المحافظة على كلام من تقدمه بنقله بنصه أسلم من الخطأ وأبعد من الزلل» (١٨) .

والمؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة تراجمه ينتقل إلى الحديث عن تقاريظ كتابه «إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال» فيورد نصّ التقريظ كاملاً بعد الإشارة إلى صاحبه، فمنهم الشيخ عبدالحي الكتاني ومحمد بن عبدالحفيظ الدباغ الحسني والمهدي الوزاني والعباس بن أحمد التازي وعبدالعزيز بناني وأحمد بن العامون البلغيثي وعبدالله الفاسي وعبدالحفيظ الفاسي وأحمد المراكشي وأحمد سكيرج والمفضل غريط وبوجندار وغيرهم .

ويعتذر المؤلف عن هذا الاستطراد بإيراد تقاريظ كتاب آخر ليس هو موضوع الحديث بقوله : «وإنما ذكرتُ هذه التقاريظ لما تضمَّنته من الثناء

على سبعة رجال الذين شغلت تراجمهم من هذا التاريخ (الإعلام) نحو ثمنه» (١٩) .

ثم يذكر عدد الكراريس التي خصصها لترجمة كل واحد «السبتي، الجزولي، السهيلي، الغزواني، التباع، القاضي عياض، يوسف بن علي» .

وقد تنبّه الشيخ عبدالحي الكتاني إلى بعض المزالق التي وقع فيها مؤلف الإعلام كإغفال ذكر المؤلفات . والتحري في النقل عن بعض التقاييد، وتجنّب الغلوّ في المدح والإطراء أو السبّ والطعن، وفي ذلك يقول : «وليرغب حفظه الله وأعلى كعبه في ذكر النادرة والفائدة والنتفة الشعرية الشاردة، وليتعرض لذكر المؤلفات، وأين هي ووصف نسخها صحة وسقمًا» (٢٠) .

موضوع كتاب الإعلام :

يشتمل كتاب الإعلام على مقدمة تضم أربعة فصول وعلى تراجم الرجال التي من أجلها ألف الكتاب .

المقدمة : اهتم المؤلف في مقدمة كتابه باستعراض تاريخ مراكش العمراني والسياسي والعلمي متكئًا على كتابات القدامى في الموضوع مؤرخين وجغرافيين، فقهاء ومحدثين، كما أنه اهتم بتاريخ أغمات مشيرًا إلى معالمها وخيراتها، منبهًا إلى فوائد علم التاريخ مع ما يناسب ذلك من الاستشهادات . كما أنه يتحدث في المقدمة عن حب الوطن، وما قيل من الأشعار في الحنين إلى الأوطان عند المشارقة والأندلسيين والمغاربة، مشيرًا إلى مصادره تارة بدقة، وتارة أخرى يغفل ذكرها .

وقد سمى المؤلف ابن إبراهيم مقدمته كما جاء في خاتمتها : «الطالعة الزهراء في فضائل أغمات ومراكش الحمراء وما يناسب ذلك من فرائد الفوائد الغراء » (٢١) .

وتشمل المقدمة أربعة فصول :

الفصل الأول : في ذكر مراكش وتاريخ بنائها وبيان مؤسسها، وجوامعها وقصورها وجنانها، فهي كما وصفها أبو العباس السبتي «مدينة العلم والخير والصلاح»(٢٢)، وكما وصفها ابن بطوطة : «مراكش من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء، متسعة الأقطار، كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين، وبها الصومعة الهائلة العجيبة» (٢٣) .

وقد أحصى المؤلف مساجد مراكش وجوامعها ومدارسها وزواياها وحماماتها، فكان العدد كالآتي :

- المساجد : مئة وستة وثلاثون مسجدًا .
- الصوامع (٢٤) : اثنتان وأربعون .
- المدارس (٢٥) : ست، منها المرينية المشهورة باليوسفية، وقد بناها أبو يوسف يعقوب المريني وأبو الحسن المريني .
- الزوايا : نحو الأربعين .
- الحمامات : أربعة وعشرون .
- الأفران : ستة وستون .
- الأبواب : أحد عشر .

الفصل الثاني : في أغمات ومالها من الخيرات والبركات، موردًا أوصاف الجغرافيين والمؤرخين والأدباء، من ذلك ما جاء في كتاب معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب : «بلدة لحسنها الاشتهار، وجنة تجري من تحتها الأنهار، وشمامة تتضوع منها الأزهار، متعددة البساتين، طامية بحار الزياتين، كثيرة الفواكه والعنب والتين ... إلخ» (٢٦) .

الفصل الثالث : في سرد أسماء التصانيف المصنفة في البلاد والأقطار أو «توثيق دعائم الأركان بتعليق أسماء تصانيف الأقطار والبلدان » (٢٧) .

في هذا الفصل يستعرض المؤلف أسماء المصنفات التي تناولت البلدان والأقطار في البلاد العربية والإسلامية، ولاشك أنه اطلع عليها أو على أغلبها، وأفاد منها، إذ إنه يلخص محتوى الكتاب في جملة أو سطر منبهًا إلى أنه مطبوع إن كان قد طبع، وإن لم يطلع عليه يشير إلى ما أورده صاحب كشف الظنون عند الحديث عنه، يقول: «وقد تصفحت على هذا الفصل كشف الظنون من فاتحته إلى خاتمته، ولخصت منه ما ذكرته فيه على وجه الاقتضاب، وأضفت إليه ما ليس عنده ممّا حضرتني حين تقييده أسماؤه من التآليف ممّا يندرج في هذا الباب، ولم أقصد إيراد جميع ما وقفت عليه على وجه الاستيعاب، وربما وقع فيه تكرار رغبة في جمع الأنظار» (٢٨) .

أما عدد الكتب التي ذكرها فيبلغ أربع مئة وثلاثين كتابًا، وعدد المؤلفين نحو مئتين وثمانين (٢٩) .

الفصل الرابع : في بيان ما يندرج من علم التاريخ في العلوم الشرعية وما يناسب ذلك من فرائد الفوائد .

في هذا الفصل، يشير المؤلف إلى العلوم الشرعية، وعددها اثنا عشر منها علم التاريخ، وقد جاء في تعريفه : «أمّا علم التاريخ فهو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية من الأنبياء والعلماء والملوك والشعراء وغيرهم، والغرض منه الوقوف على الأحوال، وفائدته العبرة بتلك الأحوال و التنصّح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمان ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار، ويستجلب نظائرها من المنافع» (٣٠) .

ويتكئ المؤلف على أقوال المؤرخين في بيان فوائد علم الأنساب والعناية بالتراجم منوهًا بأعمال المشارقة في الترجمة لأعيانهم وأدبائهم وعلمائهم وحتى العامة منهم، أمّا المغاربة فيظهر أن تقصيرهم في الترجمة «إلاّ لمن سارت بمآثره الركبان، ولا يذكرون كل أحد» (٣١) يعود إلى ترفّعهم وحصر الفضيلة في مشاهيرهم ورؤسائهم .

تراجم الكتاب :

وتضم ألفًا وست مئة وخمسين ترجمة، لكلّ من له صلة بمراكش، ولد بها أو زارها أو استقر بها أو كانت له صلة بأهلها فعُدَّ من أبنائها، وكما يرى محققُ الكتاب عبدالوهاب بن منصور «فقد حشر فيه أسماء جميع من وقف في المراجع القديمة والحديثة علي أنهم حلّوا بمراكش وأغمات من عظماء الرجال سواء اشتهروا في ميادين السياسة والحرب، أو برزوا في مجالات العلم والأدب، أو بسقت دوحاتهم في جنات التقوى والصلاح، مضيفًا إليهم حتى الذين لم يقف على دخولهم إياها صراحة، وإنما خدمتهم للملوك تقتضي ذلك ... موردًا أكثر ما وقف عليه من أشعارهم وأخبارهم وآثارهم نقلاً عفويًا يخلو غالبًا من المقارنة والتحقيق» (٣٢) .

ويمكن تصنيف التراجم إلى :

- تراجم الملوك والأمراء .
- تراجم الأولياء والصلحاء .
- تراجم الفقهاء .
- تراجم العلماء والشعراء .
- تراجم النحاة واللغويين .
- تراجم المؤرخين .
- تراجم الوافدين من الأندلسيين .
- تراجم الوافدين من المشارقة .

لم يتقيد المؤلف بمنهجية واحدة في الترجمة لكل صنف من المترجم لهم ، فهناك من تطول ترجمته فتشغل أكثر من عشرين صفحة، وقد تقصر فلا تزيد على السطرين، يورد فيها ما ذكره السابقون من المؤرخين والفقهاء من أقوال وروايات وأخبار وكرامات وبركات ومناقب وآيات، مع مقتطفات شعرية أو قصائد مطولة في بعض الأحيان .

وكثيرًا ما كان المراكشي ينصّ على ذكر مصادره التي استقى منها مادته كنفح الطيب وأزهار الرياض والإحاطة والمسند الصحيح الحسن والتكملة والجذوة وغيرها .

وكما نبّه إلى ذلك الشيخ الكتاني، فالمراكشي لا يشير إلى نوع المصدر المنقول عنه أهو مخطوط أم مطبوع، ولا إلى اسم صاحبه ولا إلى الجزء والصفحة ، وإنما هي نقولات ربما احتفظ بها في ذاكرته من خلال قراءاته أو نقلها حرفيًا دون أن يهتمّ بالتفصيلات كما هو الشأن بالنسبة للمؤلفين القدامى .

ويظهر أن استخلاص آراء المؤلف أو انتقاداته أو تعليقاته على المترجم لهم أو على آثارهم من الصعوبة بمكان ، ذلك أنه قد يجمع في كثير من الأحيان ما ورد في الترجمة الواحدة من مصادر عدة دون إشارة أو تمييز بين هذه الترجمة أو تلك، وإن كان يشير إلى المصدر الذي أخذ عنه متى بدا له ذلك ، لذلك جاء كتابه «موسوعة ذات أهمية» كما وصفه المحقق (٣٣) .

وقد رتب المؤلف تراجمه وفق ترتيب الألفبائية المغربية، مقدمًا الأحمدين والمحمدين تعظيمًا للرسول عليه الصلاة

والسـلام، ناهجًـا في ذلك نهج ابن الخطيب في الإحـاطة وابن الأبار في التكملة .

أما المحقق، فقد اتبع في ترتيبه ترتيبًا مخالفًا للمؤلف، إذا اعتمد ترتيب الألفبائية المغربية من أول ترجمة مع حذف الكنى التي لا فائدة في إثباتها، مع التقيد بحرفية الكتاب، «فلم يتصرف فيها بزيادة أو نقص» (٣٤) .

أما عن التحقيق، فهو في رأي ابن منصور : «تحرير الكتاب من أخطائه وتقويم ما اعوجّ من عباراته، بمقابلة نصوصه بالأصول التي نقل منها المؤلف مع الإشارة إليها في آخر كل نصّ أو آخر كل ترجمة، مكتفيًا بشرح بعض الألفاظ والعبارات الغريبة، عربية وأعجمية ومحلية» (٣٥) .

وبالرغم من قيمة الكتاب بوصفه مصدراً للأخبار والفوائد وفي التأريخ لمدينة مراكش ولأبنائها، فهو في رأي المحقق «جونة خرافات، وعَيْبَةُ ترهات، وفيه استطرادات عقيمة سقيمة تشحن النفس سأمًا وتبعث على الغثيان، والمؤلف يوردها في صور مناقب وكرامات» (٣٦) .

ويرى المحقق أن كثرة النقولات والاستطرادات أخلّتْ بقيمة الكتاب، فلم يبق «للمؤلف من التأليف إلا الاسم، فجلّ ما في كتابه منقول من كتب أخرى نقلاً كليّاً أو جزئيّاً، وأحيانًا من غير تسلسل منطقي ولا انتقاء» (٣٧) .

ويختم المحقق حديثه عن كتاب الإعلام قائلاً : «وكيفما كان الأمر، فإن القاضي العباس بن إبراهيم السملالي مؤلف الكتاب، يبقى له فضل كبير على مراكش خصوصًا والمغرب عمومًا، لتعلّق همّته بتأليف هذا الكتاب الذي سهر لجمع شتاته الليالي، وبذل في تأليف مادته الأموال» (٣٨) .

الهوامش

* ١٨٧٧ – ١٩٥٩م
١ – مطابع سلا ١٩٨٨ – ص١٢.
٢ – تقديم كتاب الإعلام لعبدالوهاب بن منصور ج١/ هـ .
٣ – تقديم الإعلام ، ج١ / و .
٤ – التقديم نفسه ج١ / ز .
٥ – نفسه ج١ / ط .
٦ – يظهر أنه مخطوط .
٧ – مطبوع طبعة حجرية – الجزء الأول .
٨ – تقديم الإعلام ج١ / ط .
٩ – الإعلام ج١ / ٢٨ .
١٠– السابق ج١ / ٢٠ .
١١– نفسه ج١ / ٢٣ .
١٢– نفسه ج١ / ٢٨ .
١٣– نفسه ج١ / ٢٤ .
١٤– نفسه ج١ / ٢٥ .
١٥– نفسه ج١ / ٢٦ .
١٦– نفسه ج١ / ١٣٦ .
١٧– السابق نفسه .
١٨– الإعلام ج١ / ٥٦ .
١٩– السابق ج١/٥٦ .
٢٠– من رسالة تقريظ الكتاب – الإعلام ج١ / ٣٩٦ ؛ الطبعة الأولى .
٢١– الإعلام ج١ / ص١٤٦ .
٢٢– السابق ج١ / ص١٤٦، يشير المؤلف إلى أنه نقل قول السبتي من ترجمته في المعزى .
٢٣– نفسه ج١ / ٨٠، نقلاً من رحلة ابن بطوطة ج٢/١٨٨ .
٢٤– نفسه ج١/ ٩٤ .
٢٥– نفسه ج١ / ٩٨ .
٢٦– نفسه ج١ / ١٠٩ .
٢٧– نفسه ج١ / ١١١ .
٢٨– نفسه ج١ / ١٣ .
٢٩– نفسه ج١ / ١٣١ .
٣٠– نفسه ج١ / ١٨٥ .
٣١– نفسه ج١ / ١٣٩ .
٣٢– نفسه ج١ / ب .
٣٣– نفسه ج١ / ط .
٣٤– نفسه ج١٠ / ٤٤٣، أما تتبّع كل ما ورد في الكتاب فعمل لم يقم به المحقق كما ينصّ على ذلك .
٣٥– نفسه ج١٠ / ٤٤٤ .
٣٧– نفسه ج١٠ / ٤٤٤ .
٣٨– نفسه ج١٠ / ٤٤٥ .

تصميم نظم المكتبات المبنية على الحاسب الإلكتروني

تأليف جون كوربين

ترجمة وتقديم محمد أمان

مراجعة

محمد إبراهيم سليمان

نائب رئيس قسم المعلومات

جريدة الأهرام - القاهرة

كوربين، جون / تصميم نظم المكتبات المبنية على الحاسب الإلكتروني؛ تأليف جون كوربين، ترجمة وتقديم محمد أمان .- الإسكندرية : مركز الإسكندرية للوسائط الثقافية والمكتبات ، ١٩٩٦ .- ٣٤٥ص؛ ٢٤سم . (سلسلة المعلومات والحاسب الإلكتروني؛ ٤) .

مؤلف الكتاب هو "جون كوربين" مساعد المدير للشئون الإدارية والنظم بمكتبة جامعة هيوستون بالولايات المتحدة الأمريكية . والكتاب من ترجمة وتقديم محمد أمان عميد كلية المعلومات بجامعة وسكونسن الأمريكية .

ويتكون كتاب "تصميم نظم المكتبات المبنية على الحاسب الإلكتروني" من مقدمة وسبعة فصول، وسبعة عشر ملحقًا . الفصل الأول عبارة عن مقدمة تناول فيها أهمية تصميم النظام والعناصر الرئيسة في النظام المبني على الحاسب، وطرق تصميم وإنشاء النظام وكذلك الميزات والعيوب للنظام المبني على الحاسب . أما الفصل الثاني فهو عن تخطيط المشروع وإدارته وتكوين اللجان الاستشارية وكيفية الإشراف على المشروع واختيار الخبراء . والفصل الثالث يعالج متطلبات النظام الجديد وأهدافه ووضع المتطلبات والشروط الخاصة بالتشغيل ومؤديات العمل . ويختص الفصل الرابع بعناصر تقييم النظام ومقارنته بنظم أخرى ومقارنة تكاليف التشغيل واختيار أفضل النظم . وفي الفصل الخامس عرض لمواصفات النظام ومقارنته واتخاذ القرارات الخاصة باستخدام أفضل النظم ومقارنة تكاليف تطوير النظام وتشغيله . أما الفصلان السادس والسابع فيعالجان مشكلات اختيار واقتناء أجهزة الحاسب وبرامج التشغيل ومساعدات الشركات المصنعة والموزعة للأجهزة، وإرساء النظام وتقييمه .

مقدمة وتعريف :

الفصل الأول من الكتاب عبارة عن مقدمة تعرض الفكرة العامة والمعلومات الأساسية اللازمة لتكوين نظام المكتبة المبني على الحاسب . وهو يعرف النظام المكتبي المبني على الحاسب من خلال التفرقة بينه وبين النظام المكتبي التقليدي . فبينما النظام التقليدي يعتمد اعتماداً كليّاً على العمل اليدوي الذي يقوم به الأفراد، نجد أن الحاسب يُستخدم في تنفيذ بعض أو كل العمليات المكتبية في النظام المبني على الحاسب .

أما عن تكوينات النظام فقد يشتمل كل نظام مكتبي كبير على عدد من النظم الصغيرة تعرف بالنظم الفرعية . فقد يشتمل نظام الإعارة مثلاً على نظم فرعية خاصة بالإعارة الخارجية والإعارة الداخلية وحجز الكتب والإعارة الخاصة وغيرها .

كما يتكون كل نظام آلي من عدد من العناصر . فكل نظام يشتمل على هدف أو أكثر وهو المهمة أو الوظيفة التي ينشد النظام تحقيقها، ثم من مدخلات من المعلومات أو المواد المكتبية التي قد تكون نصوصًا أو معلومات ببليوجرافية أو مستخلصات أو معلومات أخرى . ثم عمليات تشغيل النظام مثل التجميع والتحقيق والتصنيف والفرز والتخزين والاسترجاع والتلخيص والنسخ والبث . وهناك أيضًا مخرجات النظام وهي النتائج النهائية من النظام . وهي مدخلات عولجت بطريقة معينة . وقد تكون

مخرجات نظام بعينه مدخلات في نظام آخر . فمثلاً مخرجات نظام التزويد – وهي المواد المقتناة – تصبح مدخلات في نظام الفهرسة . ومن عناصر النظام أيضًا المكان الملائم للنظام من حيث الاتساع والإضاءة ودرجة الحرارة، وكذلك وجود حاسب آلي مناسب، وبرامج جاهزة، واتصالات بينية، وقدرات بشرية .

ويحدد المؤلف أربع طرق رئيسة يمكن للمكتبة بواسطتها أن تتبنى نظمها الآلية باستخدام الحاسب، وهي: شراء أو إيجار نظام جاهز، أو الاشتراك مع مكتبات أخرى من خلال شبكة تعاون مكتبي، أو تطويع وتبني نظام استخدام في مكتبة أخرى، أو تكوين نظام جديد محلياً . ويبيّن بتفصيل مزايا ومساوئ استخدام كل طريقة من هذه الطرق الأربعة . كما يبيّن بصفة عامة مزايا استخدام النظم المبنية على الحاسب الآلي في المكتبات التي تتلخص في القدرة على تخزين كميات ضخمة من المعلومات والإمكانات الهائلة في تجهيز هذه المعلومات وسرعة التشغيل والاسترجاع . أما مساوئ استخدام هذه النظم فتتلخص في أن الحاسب يعتمد دائمًا على توجيه وضبط الإنسان، ومن هنا فهناك العديد من العمليات التي لا يستطيع القيام بها مثل : عدم استطاعته التعامل بدون برامج، وكذلك عدم التعامل مع اللغة الطبيعية التي يفهمها الإنسان وضرورة تحويلها إلى لغة تقرأ آلياً، كما أن الحاسب لا يتصرف من تلقاء نفسه ولكن بناء على تعليمات خزنت من قبل بلغة يفهمها الحاسب

التخطيط للمشروع وإدارته :

الفصل الثاني من الكتاب يعرض لموضوع التخطيط في الإعداد لإدخال النظام المكتبي المبني على الحاسب . وهو يعالج هنا عدة قضايا مثل : وضع خطة مفصلة لإكمال المشروع بنجاح، ثم الموافقة على الخطة من الأطراف المعنية . وتشتمل الخطة على ثلاثة أجزاء هي : خطة المشروع، جدول التنفيذ ، طريقة المتابعة وإعداد التقارير عن تقدم العمل .

وبخصوص الخطة طويلة المدى لاستخدام النظام الآلي يرى المؤلف ضرورة اشتمالها على الآتي : تحديد رسالة المكتبة، أهداف المكتبة، قائمة بالمتطلبات التي ستعرض على مشروعات المكتبة، جدول التنفيذ ، قائمة بالأولويات في تصميم وتنفيذ الأجزاء المختلفة من نظام المكتبة .

وفي هذا المجال يعرض المؤلف لرئيس المشروع والمواصفات التي يجب أن تتوافر فيه، ثم المهام والمسئوليات الملقاة على عاتقه، وكذلك اللجنة الاستشارية للمشروع وأهمية وجودها ومهامها .

أما عن تحديد المشروع فيتطلب ثلاثة أجزاء هي : تحديد المشكلة، وأهداف المشروع، وحدود واشتراطات المشروع . فمن المشكلات التي قد تدفع المكتبة إلى البحث عن نظام جديد وأفضل مثلاً : ازدياد حجم العمل بسرعة لدرجة أن النظام الحالي أصبح غير قادر على استيعاب هذا الحجم من العمل .

ويجب أن يشتمل تقرير المشكلات على : وصف مختصر للمشكلة، وماذا حدث نتيجة المشكلة، والإحصاءات أو الحقائق المؤيدة لذلك . وعلى سبيل المثال من الممكن وصف المشكلة كالتالي :

تضخم حجم العمل بالمكتبة والزيادة التي أعقبت ذلك في حجم الاستعارات دون الزيادة في عدد الموظفين، مما أدى إلى أن موظفي قسم الإعارة يمضون وقتهم في إعارة الكتب واستلام الكتب المرجعة .

أما عن نتائج هذا المثال المعبر عن المشكلة فهي : نتيجة لهذه المشكلة التي نتج عنها تراكم الاستفسارات وطول فترات الانتظار أمام مكتب الإعارة، وتراكم بطاقات الاستعارات نظراً لأن الموظفين ليس لديهم الوقت الكافي لفرز البطاقات ووضعها في ترتيب معين. كما ازدادت كمية الأخطاء نظراً لضغط العمل وكثرة الإعارة والاستفسارات .

وقد نتج عن ذلك انخفاض في الروح المعنوية بين الموظفين نتيجة كثرة الشكاوى من المستفيدين عن بطء

الاستجابة لطلباتهم . ومن الممكن أن يرفق بذلك إحصاءات تبين تزايد حجم الاستعارة بالمكتبة مقارنة بعدد الموظفين خلال عدة شهور أو سنوات .

وبعد حصر المشكلات والتعريف بها وتوثيقها، من الممكن استخدام التقارير الناتجة لصياغة أهداف المشروع. فمثلاً من الأهداف التي يصبو إليها مشروع معين : تحسين نظام الاستعارة أو تحديث نظام التزويد أو تحسين الإجراءات المكتبية وغيرها .

أما عن اشتراطات ومقيدات المشروع فهي عبارة عن اشتراطات محددة تفرض على المشروع . فمثلاً قد تكون متطلبات المشروع أن يكتمل في تاريخ معين وفي حدود ميزانية محددة، أو أن تستخدم تقنيات محددة أو موظفين معينين .

ثم تأتي بعد ذلك الموافقة على تنفيذ المشروع أو اعتماده، وهو يأتي من مدير المكتبة أو مدير مركز المعلومات التي يعتمد أيضًا بداية المشروع واكتماله. وقد يوافق على المشروع مسئولون آخرون يخضع لإشرافهم مدير المكتبة مثل مدير الجامعة أو نائبه أو وكيل الوزارة .

متطلبات النظام الجديد :

الفصل الثالث من الكتاب يناقش متطلبات النظام الجديد . وتوضح متطلبات النظام ما يجب على النظام أن يؤديه أو كيفية تصميمه لاستيعاب احتياجات المكتبة . كما أن المتطلبات قد تحدّ أو تقيد من تصميم النظام أو تشغيله أو أداء وظائفه المتوقعة .

والهدف من تكوين متطلبات للنظام هو الحصول على صورة واضحة للنظام المطلوب قبل اختيار نظام معين من عدة نظم بديلة .

وفيما يلي بعض المتطلبات التي قد تستخدم في تصميم النظام الجديد :

- التعريف بالنظم التي تطابق احتياجات المكتبة .
- مقارنة الخطط البديلة وتقييمها .
- شرح احتياجات وما يأمل أن يحققه النظام الجديد لإدارة المكتبة وموظفيها والسلطات المشرفة على المشروع .
- التمهيد لإعداد مواصفات معينة للنظام الجديد .
- تقييم النظام الجديد فور تصميمه وإنشائه للتأكد من أنه يعمل وفق المواصفات المحددة ويفي بالاحتياجات المتفق عليها .

وقد عالج المؤلف في هذا الفصل الموضوعات التالية :

- تحليل النظام الموجود حالياً .
- أهداف النظام الجديد .
- وضع المتطلبات والشروط .
- المتطلبات العامة .
- المتطلبات الوظيفية .
- متطلبات العمل والتنفيذ .

ومن أجل تجنب نقل طرق العمل القديمة إلى النظام الجديد يفضل أن يضع الموظفون متطلبات النظام الجديد خاصة إذا كانوا على معرفة جيدة بالنظام القديم . ذلك لأن معرفة النظام القديم تساعد الموظفين على التعرف إلى المشكلات التي يواجهونها من جراء هذا النظام ، وبالتالي يحاولون تحاشي هذه المشكلات في النظام الجديد .

أما عن الأهداف الأساسية للنظام الجديد فيجب أن تشتمل على الغرض من النظام الجديد . فعلى سبيل المثال قد تكون الأهداف اقتناء الكتب والدوريات والوثائق وغيرها من مصادر المعلومات بطريقة منتظمة ودقيقة من أجل بناء المجموعات المكتبية ، أو استخدام طرق العمل الصحيحة للتحكم في ميزانية التزويد .

وإلى جانب صياغة المتطلبات الأساسية من النظام هناك المتطلبات العامة مثل: مرونة النظام لتقبل الاحتياجات الجديدة في المستقبل دون إعادة تصميم النظام أو عرقلة عمليات التشغيل، وكذلك المواءمة : أي كيفية ترابط وتداخل النظام مع نظم أخرى وخاصة إذا كان في الإمكان استخدام مخرجات نظام كمدخلات في نظام آخر، وأيضًا

التحكم والضبط مثل حماية سرية المعلومات الخاصة بالأفراد من مستعيرين وغيرهم . ومتطلبات التكاليف مثل عدم زيادة تكاليف تشغيل النظام الجديد عن تكاليف النظام اليدوي السابق، وتقليل التكاليف أيضًا بمضي الوقت مع استمرار تشغيل النظام .

تشغيل النظام ومقارنته :

الفصل الرابع من الكتاب يناقش موضوع تقييم النظام ومقارنته . فقد يوجد أكثر من نظام يفي باحتياجات المكتبة . لذلك من الضروري إجراء دراسة لتقييم ومقارنة النظم البديلة واختيار أفضل النظم . ويفضل عمل هذا التقييم والمقارنة قبل تبني نظام معين . ويقوم بهذا العمل خبير للمشروع يختارلهذا الغرض ، أو قد يقوم به رئيس المشروع نفسه .

ويعالج هذا الفصل النواحي التالية :

- القرار الخاص باستخدام أفضل النظم .
- قائمة بالنظم البديلة التي تؤخذ في الحسبان .
- مقارنة بدائل المتطلبات الأصلية .
- مقارنة تكاليف تطوير النظام .
- مقارنة تكاليف التشغيل .
- اختيار أفضل النظم .
- توثيق النتائج .

ويجب أن يكون النظام الذي ستتبناه المكتبة مطابقًا لمجموعة "السمات الخاصة باختيار النظم، وذلك لأنها تساعد المسئول في الحكم على أفضل النظم البديلة .

ويجب تقييم النظم البديلة من أجل معرفة أي هذه النظم قادرة على استيعاب متطلبات المكتبة . ويؤكد المؤلف على أن النظم يجب أن تقارن بمتطلبات المكتبة وليس ببعضها بعضًا .

وتكاليف تكوين كل نظام بديل هي تكاليف تقديرية . ويجب توافر أكثر من تسعة أنواع من التكاليف التقديرية للنظم التي تدرس وتقارن وهي: تكاليف التصميم ، تكاليف الأجهزة، تكاليف برامج التطبيق، تكاليف برامج النظام ، تكاليف إعداد المكان، تكاليف تحويل الملفات ، تكاليف تدريب الموظفين، تكاليف شاملة، تكاليف متنوعة .

مواصفات تصميم النظام :

الفصل الخامس من الكتاب يناقش مواصفات تصميم النظام، حيث يعتمد المبرمجون ومشغلو النظام على هذا التصميم لإعداد التعليمات اللازمة التي يتبعها الحاسب في تشغيل المعلومات في النظام .

ويعالج هذا الفصل النقاط التالية :

- النظام التركيبي .
- مواصفات المدخلات والمخرجات .
- مواصفات التشغيل .
- مواصفات قاعدة البيانات .
- مواصفات تصميمية أخرى .
- توثيق النظام .

والنظام التركيبي يعني أن نظام المكتبة يقسم إلى عدد من النظم الصغيرة لتسهيل عملية التصميم. وتفيد هذه الطريقة في تقسيم المشكلة الكبيرة والمعقدة إلى أقسام صغيرة ومبسطة يسهل تحليلها مع إعداد المواصفات . ومع العلم أن كل جزء يصمم على انفراد لكي يشتغل مستقلاً عن الآخرين، إلا أن النظم الفرعية تتداخل وتتصل ببعضها، ولذلك لا يمكن فصلها عن بعض .

ويجب إعداد خرائط تدفق مفصلة لتوضيح انسياب العمل في كل نظام فرعي وظيفي . وتوجد أنواع متعددة من خرائط التدفق بما في ذلك خرائط التدفق للنظام، الإجراءات ، المنطق أو القرار، الإعداد أو التشغيل، خرائط تشكيل وتجهيز المكان .

اقتناء الأجهزة والبرامج :

الفصل السادس من الكتاب يناقش موضوع : "اختيار واقتناء أجهزة الحاسب وبرامج التشغيل ومساعدة الشركات الموزعة" . وهو يهدف إلى عرض كيفية شراء الأجهزة والبرامج وكيفية إدارة

نفقات تشغيلها، وكيفية الحصول على مساعدة الشركات الموزعة في إنشاء ودعم وتطوير نظام المكتبة الذي سيتم إنشاؤه .

ويتضمن هذا الفصل ما يلي :

- طرح عروض استشارية للمشروع .
- القواعد التي يبنى عليها اتخاذ القرار نحو اختيار أفضل النظم .
- التماس استجابات مختلفة تجاه طلب المشروع .
- توثيق تلك الاستجابات .
- المفاوضات التعاقدية .

ويمكن استجلاب الاستجابات المختلفة من الشركات والمناقصات والعروض والمساعدات الفنية بطرح "طلب للمعلومات" ويطلب من الشركات أن تقدم عروضها . ويفيد ذلك في الحصول على المعلومات الأساسية من الشركات بخصوص الأجهزة والبرامج والأسعار والمشروعات الجاهزة والمفيدة للمكتبة، حيث يمكن في ضوء ذلك عمل مقارنة عادلة .

ونظراً لأن معظم - إن لم يكن كل - الشركات الراغبة في الاستجابة لطلب المشروع غير ملمة باحتياجات المكتبة، فيجب إعطاء بعض المعلومات التي تقدم خلفية موجزة وأساسية عن الكيفية التي ستستخدم بها الأجهزة والبرامج، والتي تتضمن : تاريخ المكتبة والبيئة التي توجد بها ، النظام الحالي، كيفية استخدام الأجهزة في النظام الجديد ، وكيف سيدار هذا المشروع الجديد .

ويمكن أن نطلب أن يتضمن العرض أموراً تفصيلية مثل : لغة البرمجة، إدارة قواعد بيانات المشروع وغيرها . وفيما يلي بعض الأمثلة لمتطلبات البرامج التي يمكن طلبها بالتحديد عند طلب تقديم عرض من الشركات :

- يجب أن يكون النظام قادراً على شحن البرامج تلقائياً من مكتبة البرامج إلى ذاكرته الداخلية .
- يجب أن يكون النظام محتوياً على الإجراءات القياسية لمعالجة الأخطاء، وذلك للحد من تدخل الموظف .
- يجب أن يكون النظام قادراً على التكيف مع أطقم الأجهزة التي قد تضاف مستقبلاً بعد تعديلات طفيفة .
- يجب أن يزود النظام بالإجراءات الداخلية القادرة على نسخ البرامج أو الملفات إلى أي من وسائل الإخراج وبالذات ملفات العرض أو الحذف أو التنظيم .
- يجب أن يزود النظام بإجراءات تحويل الملفات ، حيث يمكن إجراء عمليات التحويل من شريط ممغنط إلى قرص، ومن قرص إلى شريط ممغنط، وكذلك تحويل الملفات من قرص إلى آخر .

إرساء النظام :

الفصل السابع، والأخير من الكتاب يعالج موضوع : "إرساء النظام" والغرض من إرساء النظام أن يوضع ويهيئ ويقيم ويقبل النظام المطور الجديد . وقد تم في هذا الفصل مناقشة الموضوعات التالية :

- مكان وضع الأجهزة .
- إعداد المكان .
- المواصفات الوظيفية .
- توجيه الموظفين وتدريبهم .
- توجيه المستفيدين أو المستعيرين .
- التوجيه والاقتناء للنماذج والأجهزة وقطع الغيار الخاصة .
- تكوين الملفات وتحويلها .
- إرساء واختبار الأجهزة والبرامج .
- تهيئة النظام .
- تقييم النظام وقبوله .

وقد عرض المؤلف بتفصيل لكل عنصر من العناصر السابقة . وفي مجال التشغيل الفعلي للنظام يرى أن هناك عدة بدائل لتشغيل النظام لكل منها مميزاته وعيوبه . البديل الأول هو النظام الشامل أو البدء بالتطبيق الكلي أو تطبيق الكل في مرحلة واحدة ، حيث يتم التخلص من النظام القديم في وقت وتاريخ محددين لكي يبدأ النظام الجديد . البديل الثاني هو النظام الجزئي إذا كان للمكتبة فروع متعددة فيفضل البدء في

إحدى هذه الوحدات كتجربة . أما البديل الثالث فهو النظام التدريجي، حيث يتم تقسيم النظام إلى عدد من النظم الفرعية يتم تطبيقها واحدًا بعد الآخر . أما البديل الرابع فهو النظام الموازي، حيث يتم تشغيل كل من النظام الآلي الجديد والنظام القديم جنبًا إلى جنب . ثم يتم التخلص من النظام القديم تدريجيًا أو فورًا بمجرد ثبوت كفاءة النظام الجديد.

الملاحق :

تبدو أهمية الملاحق في هذا الكتاب في أنها تعرض الخطوات التفصيلية نحو مشروع خدمات المكتبات . ويصل حجم الملاحق في الكتاب إلى حوالي نصف حجم الكتاب إذ تشغل ١٤٥ صفحة من ٣٤٥ صفحة هي عدد صفحات الكتاب .

وهي عبارة عن ١٧ ملحقًا تركز على الجانب العملي التفصيلي بجانب الشروح والنظريات العلمية لما في ذلك من فائدة للمسئولين عن شئون إدارة المكتبات وتخطيط النظم وتحليلها والفنيين ومشغلي الحاسبات .

وينبه المترجم إلى أنه يجب اتخاذ جانب من المرونة في تطبيق المعلومات والبيانات تبعًا لظروف وإمكانات المكتبة التي ترغب في تبني نظام آلي جديد.

وقد افترض المؤلف وجود مشروع مخطط لميكنة مكتبة افتراضية أطلق عليها في الترجمة العربية «مكتبة الأبرار» تحتوي على عدد معين من الكتب والوثائق، وتخدم عددًا معينًا من المستفيدين، ولها عدد معين من الفروع . فإذا كان عدد الكتب والمستفيدين والفروع في مكتبتك التي تنوي تحويلها إلى الآلية – مساويًا لما ورد في مكتبة الأبرار فيمكن شراء العدد نفسه من النهايات الطرفية ووحدات التشغيل المركزية وباقي الأجهزة والمعدات التي بيّن الكتاب أنها لازمة لتحويل مكتبة الأبرار إلى الآلية . أما إذا زادت سعة المكتبة وكبر حجم تعاملها على تلك المكتبة، فيجب أن يزيد عدد الأجهزة والبرامج والمعدات تباعًا والعكس صحيح .

الملاحظات :

لاشك أننا أمام دراسة تمثل إضافة جديدة إلى المكتبة العربية، فهي تلبي احتياجات المكتبات التي تخطط لتطبيق أحدث تكنولوجيا العصر وهي نظم الحاسبات . وهو كتاب لاغنى عنه لمسئولي المكتبات العربية ومتخذي القرارات، حيث يعرض بتفصيل لكيفية اختيار النظم المبنية على الحاسب والمسائل الإدارية والتنظيمية التي تظهر قبل وبعد تصميم أو إدخال النظام .

ويزيد من قيمة الكتاب أن الذي يترجمه ويقدمه هو الدكتور محمد أمان الذي يعرفه خبراء المعلومات العرب. فهو أستاذ أمريكي عربي الأصل جمع بين الثقافتين العربية والإنجليزية، واستخدمهما أفضل استخدام في خدمة قضايا المعلومات في العالم العربي .

وإذا كان من مزايا الكتاب أنه تضمن في نهايته قائمة بالمصطلحات مع تعريب وشرح لكل مصطلح ، فيؤخذ على المترجم هنا أنه لم يرجع إلى معجم الحاسبات الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والذي يعدّ خطوة على طريق توحيد استخدامنا للمصطلحات المتعلقة بهذا المجال .

فمثلاً استقر المجمع على تعريب مصطلح COM-PUTER بالحاسب والجمع حاسبات ، بينما اختار المترجم بين ثلاث تعريبات وهي : حاسب إلكتروني أو رتّاب أو كومبيوتر . أما مصطلح Hardware فقد عربه المجمع بـ : المكونات المادية للحاسب . ولكن المترجم استخدم كلمتي الأجهزة أو المعدات . وكذلك مصطلح Half Du-plex Channel فقد عربه المجمع بالوصلة الأحادية ، ولكن المترجم استخدم له : قناة الازدواج النصفي .

وتلك مجرد أمثلة لا تقلل من أهمية الكتاب وريادته، ولكن تدفعنا إلى التفكير بجدية في وضع معجم شامل للمصطلحات المستخدمة في مجال تقنية المعلومات، تكون مرجعًا للأساتذة والباحثين والمترجمين والعاملين في مجال المعلومات في العالم العربي .

زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة

في صدر الإسلام لصالح الرواضية

مراجعة

هزاع بن عيد الشمري - الرياض

الرواضية، صالح محمد / زياد بن أبيه ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام .- الأردن : جامعة مؤتة، ١٤١٤هـ، ٢٧٢ص .

عن جامعة مؤتة بالأردن صدر في عام ١٤١٤هـ الكتاب المعنون بعاليه لمؤلفه / صالح محمد الرواضية، وكان أصله رسالة ماجستير . يقع الكتاب في طبعته الأولى هذه في ٢٧٢ صفحة بمجمله ؛ الثناء والمقدمة والمتن والملاحق والفهارس والمراجع وتعريف باللغة الإنجليزية .

أما المتن فيتكون من خمسة فصول رئيسة هي :

- الفصل الأول : زياد ، حياته ونشأته في العصر الراشدي ، وفيه من المباحث : ولادته، نسبه، وفاته، نشأته وأهم أعماله في العصر الراشدي .
- الفصل الثاني : تحول زياد إلى الصف الأموي وولايته للعراق، وفيه من المباحث : الصلح مع معاوية، إلحاق نسبة زياد بأبي سفيان، موقف الناس من الاستلحاق، تعيين زياد على العراق .
- الفصل الثالث : أعمال زياد الإدارية والاجتماعية، وفيه من المباحث : إجراءاته الأولية في (البصرة والكوفة)، سياسة التهجير، سياسته تجاه عماله وموظفيه، المقاتلة، الشرطة والحرس، الدواوين .
- الفصل الرابع : التنظيمات المالية والاقتصادية والعمرانية، وفيه التنظيمات المالية، التنظيمات الاقتصادية، التنظيمات العمرانية .
- الفصل الخامس : سياسة زياد تجاه قوى المعارضة في العراق، وفيه من المباحث : الخوارج، الشيعة، موقفه من بيعة يزيد .

وأما ملاحق الكتاب فقد حصرها المؤلف في ملحقين هما : خطبة زياد البتراء، وعمال زياد على المقاطعات التابعة للعراق .

وقد أبان المؤلف دافعه الذي حمله على اختيار هذا الموضوع بقوله : «فهي الأدوار المهمة التي لعبها زياد في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة الإسلامية، إضافة إلى أن أحدًا من الباحثين لم ينتبه إلى دراسة تلك الشخصية دراسة شاملة، لهذا قدمت على اختيار هذا الموضوع» .

وعن منهجه، قال في المقدمة : «وأود أن أشير إلى أنني قد حرصت في تحليل سياسة زياد ومواقفه المختلفة على الالتزام بالموضوعية قدر جهدي وطاقتي، اعتقادًا مني أن دور الباحث ليس الدفاع عنه أو اتهامه بمقدار ما هو إبراز للحقيقة كما هي وتعريف الناس بها . على أن زيادًا كرجل سياسة وإدارة وحرب تولى الحكم لدولة كان معظم الناس في ذلك الوقت ينكرون شرعيتها، فكان لابُدّ أن يتعرض للكثير من النقد خاصة وقد أخلص لتلك الدولة إخلاصًا يثير الدهشة والعجب، وضرب بذلك مثلاً لرجل الدولة وخادمها الذي لاينظر إلاّ لصالحها دون أن يحفل كثيرًا برأي الناس فيه .. ومهما يكن من أمر فزياد شخصية تاريخية تدرس كما هي بخيرها وشرها، وتعرض جوانب هذه الشخصية كما تصورها المصادر الموثوق بها دون تأثر

بما يقوله المؤيدون أو الخصوم» .

وخلال قراءتي المتأنية لهذا الكتاب وجدت فيه حشداً من المعلومات المهمة والمتقصية عن هذا الوالي الذي ضرب بدهائه المثل وعُد في ذلك أنه لكل كبيرة وصغيرة والذي عُرف بالحنكة السياسية وحسن الضبط الإداري والأمني وتحسين الموارد الاقتصادية وتدبيرها .

وقد عرف المؤلف تلك المعلومات بأسلوب رشيق وموضوعية بينة معتمداً على طريقة الاقتضاب غير المخل، وقام بنقد بعض الروايات نقداً بناءً مبيناً وجهة نظره الخاصة حيالها . ومهما يكن فالكتاب نفسه يعد إنجازاً كبيراً لا يستغنى عنه فيما يخص حياة زياد وإمارته على العراق وما دار حول ذلك من أخبار وحوادث وعلاقات سياسية واجتماعية وتدبير لذلك .

ويُلحظ الجهد الجلي الذي قام به المؤلف في ثنايا أسطر كتابه ما بين الجلدتين الأولى والثانية . ومع تقديري للمؤلف والمؤلَّف على هذه المعلومات والبذل من أجلها إلا أنني وددتُ لو أن الكتاب قد خلا من بعض الهنات المطبعية، والنحوية واللغوية إضافة إلى بعض الخلل في ضبط بعض أسماء الأعلام من الناس، فنوضح ذلك للفائدة مع الظن أن للمؤلف عذراً عن تبعية بعضها :

- **أخطاء مطبعية** ، وإن كانت قليلة فأمثلتها : (زيادة) ص٢٩ إذ صحيحها بحذف التاء المربوطة . و (إلا أنه يلجأ) ص٤٤ فمن سياق الحديث فإن صحتها : إلا أنه لم يلجأ و(رهذه) ص٥٧ إذ صحيحها : وهذه . و (ودو زياد) ص٨٠ وصحتها : ودور زياد .
- **أخطاء نحوية** ، وإن كانت أيضاً قليلة فأمثلتها : (أبا بردة) ص١٣٣ ولكونه مبتدأ فإن صحته : أبو بردة . و(أقيم في البصرة عدداً من القصور) ص١٩٧ فصحيحها :عدد ، والعلة واضحة .
- **ألفاظ أسلم** ، وردت بعض الألفاظ اللغوية الضعيفة والفاسدة فلو نظر المؤلف إلى البديل الأسلم عنها مثل : - (استفدت) و (استفاد) و (هام) و (هامة) فهذه ألفاظ فاسدة والنافع فيها : أفدت ، أفاد، مهم ، ومهمة ..

وهناك ألفاظ ضعيفة إلى درجة الفساد اللغوي مثل : (اللامركزية) وصحيحها : غير المركزية . و(مقاتلها) ص١٠٢ وصحيحها : مقاتلتها . و(وهما ابنا خالة) ص٢٠٧ وصحيحها : وهما ابنا أختين .

- **أخطاء لغوية فاحشة** ، يلاحظ كثرة الإغراق في إهمال نقطتي التاء المربوطة في كثير من الألفاظ لتفريقها عن الهاء، ونوجزذلك في : (المحاباه) ص١٤٦ و (عنوه) ص١٥٤ و (دجله) ص١٨٢ و (قطيفه ديباج) ص١١٤ . أما الأشنع من ذلك فالإغراق في إهمال نقطتي الياء لإظهارها عن الألف المقصورة في الأسماء، والأفعال المتكررة كثيراً مثل : (الذرارى) و(العذرى) و (الطبرى) و (البلاذرى) و (الدينورى) و(البصرى) و(الفزارى) و (ابن عدى) و (مصرى العراق) و (تأوى إليه) و (رأى «رأي») و (المنادى «المنادي») و (يروى «يروي») وإن كان ذلك مستخدماً في بعض الخطوط العربية - المصرية مثلاً - فإنه لا عذر للمتهاون في وضع نقطتي الياء في موضعها خاصة في ظل تقدم الطباعة وسهولتها .
- **تصحيف أو إهمال ضبط بعض أسماء الأعلام**، مثل : (عمر بن شبه) وقد تكرر ذلك كثيراً في صفحات الكتاب . وصحيحه : عمر بن شبة، بتنقيط التاء المربوطة اللازمة ، وإن أردنا الفائدة أكثر فبفتح الشين والباء المشددة . ومثل : (بسر بن أبي أرطاة) وصحته : بسر بن أرطاة ، فقط، وهو قائد قرشي مشهور زمن معاوية . ومثل: (هشام بن الكلبي) ص١١٤ فنسب الابن يتبع أبيه إذ صحته : هشام الكلبي . ومثل : (المغيرة بن شعبه) ص١١٤ فأين نقطتا التاء المربوطة في شعبة . ومثل : (تميم اللات) ص١٢٩ و (تميم الله بن ثعلبة) ص ١٩٧ ولكن صحتهما : تيم اللاة وهم بطن من العرب مشهورون لاغير . ومثل : (مسلم بن زياد) الذي تكرر في صفحة ١٨٢ وهذا إنما هو سلم بن زياد بحذف ميم

أوله وفتح السين وسكون اللام؛ وللفائدة عنه فيكنى أبو حرب وكان جواداً سخياً ولاه يزيد بن معاوية خراسان وسجستان وعمره أربع وعشرون فعبر النهر ومعه وجوه أهل العراق وفيهم بريدة بن الحصيب الأسلمي، رضي الله عنه ، وصحب سلمًا زوجته أم محمد بنت عبدالله بن عثمان بن أبي العاصي الثقفي، وكانت أول امرأة عربية تقطع النهر وهي من عقائل ثقيف . وسلم هو الذي افتتح التبت وفي فضله قال الطبري (لم يحب أهل خراسان أميرًا قط حُبهم سلم بن زياد، فسُمِّي في تلك السنين التي كان بها سلم أكثر من عشرين ألف مولود بسلم من حبهم سلمًا) . ٥٤٠/٥٠ .

أما الأهم عندي في هذا ليس ما مضى من ملاحظات يدركها غالب المدركين وإنما في بعض الأفكار والمعلومات والآراء التي أوردها المؤلف من بنات أفكاره أو تبناها من بنات معلومات الآخرين وأفكارهم وإننا لفي خلاف معه فيها ، مثلاً :

١ - عنوان الكتاب، زياد بن أبيه .... فيعرف المؤلف أن كلمة ابن أبيه ما هي إلا من استحداث أعداء زياد أطلقت عليه في زمن متأخر عن وفاته وإطلاقها هنا ما هو إلا جريًا على هذا المصطلح الذي قد يبطل في البحث العلمي أو على الأقل يصحح وإثباتًا له .

٢ - في صفحة ٩ ورد النص «على أن زيادًا كرجل سياسة وإدارة وحرب تولى الحكم لدولة كان معظم الناس في ذلك الوقت ينكرون شرعيتها» . وهذه عبارة تنقصها الدقة والمعلومة السليمة فزياد لم يتول الحكم في الدولة الأموية وإنما هو أحد ولاتها، إمارة العراق ، وكذلك فمن الصعب معرفة أكان معظم الناس في ذلك الوقت ينكرون شرعية الدولة ولإثبات معلومة كهذه لا بد من برهان قاطع ولا يكتفى باجترار أقوال الأعداء .

٣ - في صفحة ١٠ ورد نص المؤلف «فزياد شخصية تاريخية تدرس كما هي بخيرها وشرها وتعرض جوانب هذه الشخصية كما تصورها المصادر الموثوق بها دون تأثر بما يقوله المؤيدون أو الخصوم» . فأقول للمؤلف : ألا تتفق معي أنه من اللازم تمحيص هذا الخير أو الشر الذي ذكر في شخصية زياد في مثل هذا البحث . ثم كيف تقدر المصادر الموثوق بها هنا .

٤ - في صفحة ١٠ أيضًا ورد نص المؤلف « .... إضافة إلى أن أحدًا من الباحثين لم ينتبه إلى دراسة تلك الشخصية دراسة شاملة» . فقد يكون ذلك باللغة العربية ولكن هناك كتاب باللغة الإنجليزية ألفه أحد الباكستانيين طبع قبل هذا الكتاب وأعطى دراسة شاملة وواسعة عن زياد كما بلغني جاسر أبو صفية - من اللغة العربية في الجامعة الأردنية .

٥- في صفحة ٢١ وردت عبارة المؤلف «وتظهر موضوعية ابن الطقطقي من خلال سرده للحوادث دون تحيز ، فيذكر معاوية وبعده - رضي الله عنه - ويلقب عليًا بأمير المؤمنين» . فهذا لا يكفي للدلالة على موضوعية ابن الطقطقي ولا تحيزه قط، وما عساه يقول غير ذلك عن الاثنين، ولو كان موضوعياً حتى هنا لذكر معاوية وبعده، أمير المؤمنين أيضًا .

٦- ورد نص المؤلف في صفحة ٣٢ « ... وتنازل ابنه الحسن لمعاوية عن الخلافة» وتكررت هذه العبارة في صفحات ٧٢، ٨٢، ٢١١، ٢١٣ ونصه في صفحة ٢٢٨ «إلا أن تقاعس الحسن وعدم جديته في مواجهة معاوية جعل زيادًا يدرك ...». فتنازل الحسن مقولة رافضية فهو لم يكن خليفة حتى يتنازل ، ولكنه أكمل قيادة أهل العراق حينما قتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فصالح معاوية وبايعه حينما رأى مصلحة المسلمين في إنهاء الحرب بين أهل العراق وأهل الشام، وكان ذلك مما أنبأ به صلى الله عليه وسلم بقوله «ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» وقد ناقش

ذلك ابن العربي في عواصمه .

ومن الغريب وصف الحسن – رضي الله عنه – بالتقاعس وعدم الجدية، وهو الذي ضرب أروع الإيثار والمثل في الصلح بين الفئتين العظيمتين من المسلمين .

٧- ورد نص المؤلف في صفحة ٥٩ «فشجع ذلك التجار ورجال الأعمال على الوفود إليها – البصرة – فنمت الحياة المدنية فيها نمواً سريعًا» ففي ظني أن إطلاق لفظة رجال الأعمال على ذلك الوقت لم تكن في محلها .

٨- في صفحة ٦٦ ورد نص المؤلف : «وعلى الرغم من محاربة زياد للعصبية القبلية ومحاولته للقضاء عليها باعتبارها معول هدم في الحياة الاجتماعية». فهذا ظن تعميمي مطلق فليس كل العصبية القبلية معول هدم في الحياة الاجتماعية، ولكن للعصبية تلك جوانب مفيدة وبناءة أيضًا يدركها زياد ويدركها كل العقلاء .

٩- في صفحة ٧٥ ورد النص المنقول من قول زياد : «العجبُ من ابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق ورئيس الأحزاب ...» يعني معاوية . فهذا القول، وإن كان منقولاً لانظن بوضعه على لسان زياد . وقد ورد أول ما ورد في تاريخ اليعقوبي المعروف بعدائه للأمويين وقدحه بهم إذ لا يعقل بزياد قول القدح بالصحابة .. ولكن أهل الضلال من الرواة والإخباريين هم أهل الروايات الكاذبة والمدسوسة ولعل المؤلف – وقد تمنيت عليه أن يقف عند هذه الرواية ولا يتركها تفوت دون تعليق – أن يوافقني على ركاكة هذا النص؛ فهذا زياد يتعجب أن يتهدده معاوية فأين زياد من معاوية سيد قريش وأحد كبار الصحابة، ثم جعل هنداً آكلة الأكباد بصيغة الجمع وحتى قصة لوكها كبد حمزة – رضي الله عنه – يوم أحد قد بينا بطلانها في كتابنا «عقيلة قريش هند بنت عتبة» وصحيح أن أبا سفيان كان رئيسًا للأحزاب ولكن قبل أن يهتدي والإسلام يجب ما قبله ، أما وصم معاوية أو أبي سفيان بالنفاق بعد إسلامهما فهذه جائحة ونفاق بذاته وإنه لابد من التأدب مع الصحابة رضي الله عنهم جميعًا .

١٠- وفي نصح المغيرة بن شعبة لزياد أن يستسلم لمعاوية بعد تنازل الحسن، ورد نص المؤلف: «ولابد أن المغيرة وعد زياداً وعوداً غير معلنة، أقدر منها إلحاقه بنسب أبي سفيان وتساهل معاوية بشأن الأموال التي كانت معه » . ونحن نقدر هفوة المؤلف في هذا الرأي، ولايجب موافقته على رأيه الافتراضي هذا كوننا نعلم فقط أن زيادًا كان أحد ولاة علي بن أبي طالب وبالتالي كان تبعًا للحسن بن علي وقد تنازل الحسن لمعاوية ولابد أيضًا لزياد نفسه الدخول فيما دخل في أميره ، ولا يحتاج الأمر بعد هذا إلى وعود وإغراءات غير معلنة من لدن المغيرة، أو معاوية أو كذلك إلى رشوة ولا منطق لقياس أفعال الناس آنذاك بأفعال غيرهم من بعدهم وهكذا دواليك .

١١- ورد إشارة المؤلف صفحة ٩٥، أن عمر بن عبدالعزيز أبطل ما كان من لعن الخلفاء ونحو ذلك من الأمور التي رأى أنها مخالفة للدين . وتكرر في صفحات الكتاب ذكر سب معاوية ولعنه لعلي .

لقد أشاع رواة الرافضة ومؤرخوهم قصة ابتداع الأمويين لعن علي بن أبي طالب أيام معاوية وما بعده على منابرهم وفي مجالسهم فتداول نقلها عدد من المؤرخين وعامة الناس في غيبة الوعي والإدراك وحضور السذاجة وحسن النية مع أن هذا الرواية لا تستند على منطق واقعي وحقيقة تاريخية سليمة التبة، وإنما هي من أبواب الإساءة للأمويين ، فمعاوية المعروف بالدهاء والحلم وصلته القريبة من جهة النسب والزمالة بعلي أكبر وأعلى من النزول إلى

الإساءة إلى علي وقد واجه ربه . ونضيف إلى هذا القول إنه ليس من العدالة مقارنة عمر بن عبدالعزيز - رحمه الله - وهو من تابعي التابعين بالخلفاء الصحابة الأمويين أمثال معاوية ومروان بن الحكم فقد فاقه الاثنان بفضل الصحبة وكذلك الدهاء والفحولة ، ومن الصعوبة بمكان أيضًا أن نقرنه بالخلفاء الأمويين من التابعين أمثال عبدالملك أو يزيد أو الوليد فقد فاقوه بفضل التابعية والغزو، وإن قال قائل إنهم قد ظلموا فنقول وما يدرينا بذلك ونحن الذين أخذنا أخبارهم من أعدائهم على أنه كانت لهم أدوار في إخماد بعض الفتن، نقول هذا ونحن على دراية بعدالة عمر ابن عبدالعزيز وفضله، وقد نال - رحمه الله - رضى الخوارج والرافضة عن غيره من الأمويين لأنه سمح لهم في عهده بحرية الجدل وإشاعة المذهب من باب محاولة إقناعهم فاشتدت شوكتهم ونمت بذرة فكرهم أكثر .

١٢- أشار المؤلف في صفحة ١٠٥ أنه في عهد معاوية كانت مناطق الجزيرة - عدا البحرين وعمان - تابعة إدارياً للمدينة . وهذا قول تنقصه الدقة فقد كانت مكة منطقة إدارية مماثلة للمدينة يعين الخليفة أميرها ويتبع له مباشرة غالب الوقت من خلافته وقد مات معاوية وعلى المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عينه عليها سنة سبع وخمسين بدلاً من مروان بن الحكم . وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص الذي ضم إليه يزيد المدينة .

١٣- وحول تنظيم القضاء وتعيين القضاة في عهد زياد على العراق ورد نص المؤلف صفحة ١٤٧ «وأسند قضاء الكوفة إلى شريح بن الحارث الكندي» . بل إن الذي أسند قضاء الكوفة إلى شريح هذا هو عمر بن الخطاب فبقي قاضيًا لها حتى أيام الحجاج فطلب الإعفاء فأعفاه، ولم ينقطع عن ذلك إلا زمن الفتنة أيام ابن الزبير رضي الله عنهما .

١٤- ورد نص المؤلف صفحة ١٨٩ «اهتم زياد بإنشاء كل ما يؤدي إلى نهضة التجارة من أسواق وأنهار وطرق، فقد كان يعلم أن النهضة التجارية تزيد في إيرادات بيت المال، فيصبح بذلك موضع رضى الخليفة معاوية». فهذا افتراض ولا نظن أن تحسين موارد التجارة لزيادة إيرادات بيت المال فقط، ولكن هناك مصالح أخرى مهمة تأتي تبعًا للاستقرار الاقتصادي وتعين الدولة والناس على الطمأنينة ، وليس من أجل رضى الخليفة الذي صوره المؤلف بأنه لا يرضى إلا بقدر ما يرده من بيت مال العراق . فأمن العراق واستقراره كان هم الأمويين الأول قبل أمواله .

١٥- وعن رأي الشيعة في علي من الناحية السياسية قال المؤلف صفحة ٢١١ «ولم يكن هذا رأي الشيعة وحدهم بل اتفق معهم في هذا الرأي جُلّ أهل الكوفة، فكانوا يعتبرون علياً الشخصية السياسية التي حققت الاستقلال للعراق» . أعجب لهذا الرأي ومجاراة المؤلف له فما أدري أعلي شخصية سياسية أم أمير للمؤمنين أكبر من الشخصية السياسية وما أدري ما هو هذا الاستقلال وعن من تم تحريره ؟

١٦- ورد نص المؤلف صفحة ٢٢١ «ومنهم السيدة عائشة أم المؤمنين» . ما أدري عبارة (السيدة) تليق بعائشة فهي أم المؤمنين وهذا غاية الشرف لها ولنا وأخشى ما أخشاه أن تكون يومًا مثل السيدة زينب والسيدة نفيسة في بعض الأقطار .

١٧- ورد القول صفحة ٢٢٢ «كما استنكر الحسن البصري مقتل حجر (بن عدي) ووصفه بأنه كان خصلة من عدة خصال كن في معاوية، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة ، ويرى طه حسين أن مقتل حجر كان من الأحداث الكبار في الدولة الأموية وأنه كان صدعًا في الإسلام» . إنني على ثقة تامة بأن الحسن البصري نفسه كان يعرف

قدره حين مقارنته بصحابي مثل معاوية وشتّان ما بينهما وسواء قال هذا القول أو لم يقله فهو مردود وإنه بذاته موبقة.

أما رأي طه حسين فهو صدع بذاته في الفكر الإسلامي، والخطل أن نأخذ رأيًا كرأي طه حسين في قضية فعلها الصحابة .

وقضية مقتل حجر بن عدي مسئولية سلطان المسلمين حينذاك وحقه الشرعي، فها هو حجر قد خرج على السلطان وشق الجماعة وحَرّض على الخروج باب الفتنة وفرقة المسلمين وأمرهم جمع فنهوه مرات ومرات ولكنه تمادى فلما لم ينته قتل، وماقتلوه إلا بتأويل من الهدي الشريف : «من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم . و«ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة» رواه البخاري . و«ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جمع فاضربوه بالسيف كائنًا من كان» رواه مسلم .

١٨- ورد نص المؤلف في ص٢٢٥ «لم تكن فكرة الوراثة في الملك مألوفة لدى العرب مما جعل اعتماد هذا المبدأ أمرًا ليس من السهل تنفيذه» . وهذا قول فيه مغالطة يعرفها أدنى عارف، والمبدأ هنا ممكن تنفيذه بسهولة فالتوريث في الحكم يجيء بتعيين من القائم أو بوصية منه فمتى ما كان الوارث قدر المسئولية فليس هناك ما يدعو للطعن . أما إذا كان القصد هنا هو توريث الابن أو الأخ أو نحو ذلك فما هو الحكم الذي يحرم ذلك . وأما الشورى في اختيار الحاكم أو السلطان فليست بلازمة، ولا ضرورة أحيانًا، وهناك من المفاسد الكثير فيما لو ترك الأمر دون اختيار مسبق خاصة في ظل أوضاع غير مستقرة مما يهدد وحدة الأمة وتشتيت شملها وضعفها أو دبيب النزاع وإثارة الفتن .

وليس صحيح استشارة معاوية للمغيرة بن شعبة ولزياد في نية تعيين ابنه يزيد وليًا للعهد كما أشار المؤلف في صفحة ٢٢٥ وما بعدها لأن فكرة معاوية في تولية يزيد تمت سنة ست وخمسين في حين أن المغيرة - رضي الله عنه - مات سنة تسع وأربعين أو خمسين وهو أمير الكوفة ، ومات زياد سنة ثلاث وخمسين، ثم أن مسألة الخلافة آنذاك لا تتعدى نطاق قريش وبشكل أقرب الأمويين منهم، فإذا كانت هناك رغبة في الشورى وقتها فإنها لقريش ومن قريش .

وأما ظن المؤلف في صفحة ٢٢٦ أن زيادًا كان يطمع في خلافة معاوية ببيعة منه فلا نظنه رأيًا معيبًا وزياد كان يدرك ذلك حتمًا .

١٩- ورد نص المؤلف في صفحة ٢٣٠ «وأظن أنه ليس من حق أي باحث أن ينصب نفسه قاضيًا يدين ويبرئ لأن القاضي هو القارئ، أما المؤرخ فمهمته تنتهي عند كشف الحقائق وعرضها» . أختلف معه لوجوه فمن حق الباحث أن ينصب نفسه قاضيًا للتاريخ وإلا ما فائدة المؤرخ الناقد، فهو وحده الذي يدين ويبرئ ولا يمكن عهد القارئ البسيط أن يقضي في التاريخ فلو كان كذلك لماذا نحتاج إلى باحث ناقد . وماكشف الحقائق وعرضها إلا ضربًا من الإدانة أو التبرئة .

٢٠- تطرق المؤلف إلى نسب زياد في صفحة ٣١ وما بعدها ، وكذلك تطرق إلى إلحاق معاوية له بنسب أبي سفيان في صفحة ٨٢ وما بعدها، وكأنني لمست ميل المؤلف إلى نفي زياد عن ثقيف وتأييد قصة الإلحاق، وإذ اقترب كثيرًا من الرأي الذي يقول إن زيادًا كان من صميم ثقيف وأعيانها وإن قضية الإلحاق ما هي إلا من وضع أعداء معاوية وزياد معًا للإساءة لهما وعند أصحاب هذا القول ما يبرره فإنني أرجئ الرأي عن ذلك حتى الاطلاع على البحث الذي قامت به إحدى طالبات الجامعة الأردنية وأثبتت فيه أكذوبة هذا الإلحاق .

في تراثنا العربي الإسلامي

لتوفيق الطويل

مراجعة

عبداللطيف حسين الأرناؤوط
اتحاد الكتاب العرب - دمشق - سوريا

الطويل ، توفيق / في تراثنا العربي الإسلامي .- ط١ .- الكويت : عالم المعرفة ، ٢٥٠ ص .- (سلسلة عالم المعرفة ؛ ٨٧) .

يُعد كتاب «في تراثنا العربي الإسلامي» لتوفيق الطويل إضافة مهمة للمكتبة العربية، حيث يتناول التراث العربي الإسلامي ، ويمتاز بتركيزه على خصائص التفكير العلمي عند العرب .. ومؤلفه أحد أعلام الفكر العربي المختصين في الدراسات العربية الإسلامية .

يحدد المؤلف في المقدمة التراث العربي في فسحته الزمانية والمكانية (عصر الإسلام الذهبي في المشرق والمغرب العربيين) من منتصف القرن الثامن الميلادي حتى القرن الثالث عشر الميلادي، أما التراث الغربي فيتناول العصور الحديثة التي بدأت بالقرن السابع عشر للميلاد وفيه تمَّ وضع أصول المنهج التجريبي في الغرب، ويلاحظ المؤلف أن الموازنة بين تراث الغرب والشرق تستدعي عدم إغفال الفارق الزمني بين التراثين .

كما يحدد المؤلف المقصود بالتفكير العلمي وهو التفكير الذي تنطلق منه أية دراسة تعتمد منهج الملاحظة الحسية والتجربة العلمية، وتستهدف وضع قوانين لتفسيرها تصاغ برموز رياضية . وهو منهج يستبعد التسليم للخرافة والأوهام والخوارق والقوى

خصائص التفكير العلمي في تراث العرب وعند الغربيين :

يشير المؤلف في الفصل الأول إلى خصائص التفكير العلمي، ومنها البدء بتطهير العقل من معلوماته السابقة والشك بالمسلمات، وقد سبق العرب الغربيين في الشك بالحقائق الموروثة .. فمن أقوال الجاحظ «تعلّم الشك في المشكوك فيه .. فلو لم يكن ذلك لا تعرف التوقف ثم التثبت». وكان أبو هاشم البصري (٩٢٣م) يرى أن الشك ضروري لكل معرفة ، ويقول الغزالي : «لو لم يكن في هذه الألفاظ إلا ما يشكك باعتقاد الموروث لكفى بذلك نفعًا» . وقد سبق الغزالي الفيلسوف الألماني ديكارت بخمسة قرون في اعتماد الشك المنهجي الإرادي، ونبّه الحسن بن الهيثم إلى «أن حسن الظن بالعلماء السابقين مغروس في طبائع البشر، وأنه كثيرًا ما يقود الباحث إلى الضلال» .

ومن خصائص التفكير العلمي، الملاحظة الحسية كمصدر للحقائق، ويُراد بها توجيه الذهن إلى ظاهرة حسّية لكشف خصائصها، والملاحظة أهم أركان المنهج العلمي اعتمدها العرب في بحوثهم، ومنهم «جابر بن حيان» مؤسس علم الكيمياء الذي اعتمد التجربة أساسًا لنظرياته، وأشار «الحسن بن الهيثم» إلى أهمية الاستقراء في البحث والتثبت من المقدمات وسلامة النتائج، كما أبرز «إخوان الصفا» أهمية الاستقراء في الوصول إلى الحقائق، ورفض «البغدادي» مؤلف كتاب «الإفادة والاعتبار» التسليم بما يقوله جالينوس .. والاعتماد على التجربة . كما أظهر ابن النفيس وابن سينا أغلاط جالينوس اعتمادًا على التجربة . وكان أطباء العرب وهم يزاولون الطب لا يقنعون بقراءاتهم بل يعتمدون على خبراتهم السريرية ، وكتب «الرازي» موسوعته الطبية

[الحاوي] وضمّنها كثيرًا من تجاربه وملاحظاته جامعًا بين العلم النظري والتطبيقي ..

وكان «رشيد الصوري» عالم النبات، يدرس النباتات في منابتها، ويستصحب معه من يرسمها بألوانها وفي مختلف مراحل نموها .

ويتحدث «ابن الخطيب الغرناطي» في رسالة له عن العدوى فيقول : «وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحسّ والمشاهدة والأخبار المتواترة» .

وفي الجغرافيا لم يكتف العرب بالتسليم بآراء بطليموس .. بل لجأوا إلى المشاهدة والتجريب، وقام «أبناء موسى بن شاكر» بقياس الكرة الأرضية بأسلوب تجريبي، وتوصلوا إلى أن محيط الأرض يبلغ ٤١٢٤٨ كم وهو رقم قريب من الحقيقة يدل على ما كان للعرب من الباع الطويل في الأرصاد وأعمال المساحة .

وبنى الجغرافيون العرب معارفهم على الرحلة والاختبار، فعرفوا خواص كل إقليم بالمشاهدة؛ كما فعل «المقدسي وسليمان التاجر» وبرعوا في رسم الخرائط التي اعتمدوها بالخبرة والعيان، وكان للإدريسي صيت في هذا المجال، فقد وضع خريطة للأرض من الفضة لصالح ملك النورمانديين «روجر الثاني» فاستحق بجدارة لقبه وصيته.

واستخدم العلماء العرب الآلات في بحوثهم وصمموا كثيرًا منها، فاستخدموا الأصطرلاب وصمموا البوصلة، واخترع الرازي عددًا من الآلات والأجهزة لتجاربه الكيماوية، واستخدم الزهراوي الطبيب وهو من أكبر الجراحين العرب مئات من الأدوات في عملياته الجراحية .

وكان جابر بن حيّان يطلق على التجربة مصطلح التدريب، وقادته تجاربه إلى نتائج كيماوية باهرة، كما زاول التجربة «ابن الهيثم» وسماها «الاعتبار» وترك نتائج مهمة في ميدان البصريات، ووضع ابن سينا أسسًا وقواعد للتجربة العلمية في مجال اختبار الأدوية، كما فطن العرب إلى ضرورة المشاركة والتعاون بين العلماء في مجال البحث العلمي، فاستعان «الطوشي» بعدد من الفلكيين لمساعدته في دراساته الفلكية، واستعان «الإدريسي» بعدد من الباحثين الأذكياء في وضع كتابه [المشتاق في اختراق الآفاق].

ومن خصائص التفكير العلمي النزوع إلى التعبير عن نتائج البحث النظرية المجردة برموز وقوانين وأرقام عددية فاستخدم العرب الآلات التي تحول الكيفيات إلى كميات عددية توفيرًا للدقة، والمراصد التي ضمت أجهزة مختلفة للقياس كالمزولة والأصطرلاب، وتوصلوا إلى قياسات دقيقة لحركة الأوج الشمسي ، وصححوا أخطاء بطليموس في انحراف دائرة البروج ومواقيت اعتدال الليل والنهار وطول البحر المتوسط، وحساب المثلثات ، وحلّ المعادلات التكعيبية . ووفق «الفرغاني» في قياس بُعد الكواكب وتحديد المسافات بينها بالشعاع الأرضي ، كما قاس «البيروني» الثقل النوعي مستخدمًا جهازًا مخروطيًا يُعدّ أقدم مقياس للكثافة .

ومن سمات التفكير العلمي موضوعية البحث ونزاهة الباحث، وقد التزم العلماء العرب بهاتين السمتين. يقول «الحسن بن الهيثم» : «الحق مطلوب لذاته، وكل مطلوب لذاته ليس يعني طالبه غير وجوده، ووجود الحق صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة بالشبهات». ونجد مثل ذلك الحرص على النزاهة والحياد والموضوعية في كتابات : الغزالي وابن رشد والجاحظ، كما نجد لديهم الاعتقاد بمبدأ الحتمية التي تفرض أن لكل ظاهرة علة ونتيجة أو معلول قبل أن ينادي «جون ستيورت ميل» بمبدأ الحتمية بمئات السنين .

على أن هذه السمات المنهجية في التفكير لدى العلماء العرب لم يعترف بها الغرب حتى نهاية القرن التاسع عشر، فقد صدرت بحوث من مستشرقين متعصبين أنكروا فضل العرب على الثقافة والحضارة العالمية إلى أن جاء القرن العشرون، وزالت موجة التعصب البغيض، فسلم كثيرًا من الباحثين الغربيين بفضل العرب الثقافي والعلمي.. وأبرزوا خصائص التفكير المنهجي لدى العرب

المسلمين والنتائج المهمة التي توصلوا إليها، على الرغم من عدم نشر كثير من المخطوطات التي تعزز هذا الإنصاف، وعلى الرغم من شعور اليأس الذي يخالج أبناء الجيل الجديد من الأمة العربية بسبب تدهور الأوضاع العربية الراهنة .

الترجمة ونقل الثقافات الأجنبية الوافدة :

في الفصل الثاني من الكتاب ، يعرض المؤلف أثر الترجمة في ازدهار الفكر العربي في عصره الذهبي، فيبرز أهمية نقل المعارف بين الأمم، ويشير إلى أن الترجمة بدأت منذ عهد بني أمية بأمر من خالد بن يزيد ابن معاوية، وأجاز الخليفة عمر بن عبدالعزيز نقل الكتب الطبية إلى العربية . وقد اهتم العرب بترجمة التراث اليوناني منذ القرن الثاني للهجرة ، وهو تراث فلسفي وطبي وجغرافي، وقام ازدهار الفكر العربي على نقل تراث الأمم الأخرى من فرس وهنود، كما قامت نهضة أوربا على نقل التراث العربي إلى اللاتينية، وميل بعض الخلفاء للعلوم الفلسفية ومواجهة المشكلات الدينية الفلسفية . وكان التراجمة يجيدون اللغة التي ينقلون عنها، ويحرصون على الدقة في النقل، وإن توخى بعضهم تجنب الترجمة الحرفية، وأدى تفاوت اللغات إلى بعض الغموض في النصوص المترجمة، فعمد «إسحق ابن حنين» إلى إعادة ترجمة بعض أعمال ابن البطريق وأسطفان بن باسل، وسخا الخلفاء في إكرام المترجمين، فكان حنين بن إسحق يتقاضى وزن ما يترجمه من كتب ذهبًا، ونقل أغلب المترجمين التراث اليوناني عن السريانية والعبرية دون تدقيق في أغلاط أو إغفال ما وقع فيها السريان في ترجمتهم، ففقدت هذه الترجمات دقتها ونصاعة أسلوبها . وكانت هذه الترجمات تخضع لمراجعات دقيقة قبل اعتمادها من مختصين أكفاء، وبرع الفرس في الحكمة والتنجيم والهندسة، فنقل العرب كتبهم زمن الدولة الساسانية، واستمرت حركة الترجمة عن الفارسية إلى العربية، وبرز فيها أعلام كابن المقفع ، وشجع دخول الفرس الدين الإسلامي وتعيين الوزراء من أصل فارسي - كالبرامكة - على حركة النقل عن الفارسية . وكان للأدب الفارسي أثر قوي في الشعر العربي والأدب في عهد العباسيين.

ونقل العرب عن الثقافة الهندية بعض الأفكار الفلسفية كالتناسخ، وأخذوا عنها الرياضيات والفلك، ودراسة أوزان الشعر، وآراءهم النقدية في الأدب والبلاغة، ونظراتهم في الكون والحياة مما يدخل في باب الحكمة .

ونشطت بعض المراكز الثقافية الفارسية واليونانية والسريانية في الترجمة مثل : جنديسابور وحران والإسكندرية التي كانت مراكز إشعاع ثقافي وعلمي منذ القدم، فكان لها الفضل في التعريب بتشجيع من الخلفاء، وفي نهاية القرن الثالث الهجري اكتملت حركة الترجمة، وتحول العلم العربي إلى مرحلة الإبداع والأصالة، واستمرت هذه المرحلة إلى أن دمّر هولاكو بغداد في منتصف القرن الثالث عشر .

ومرت الترجمة بثلاثة أدوار وأسهم فيها خمس طوائف هم :

١ - النساطرة أكبر نقلة الطب .

٢ - اليعاقبة الذين نقلوا الأفلاطونية المحدثة ونصوصها .

٣ - الزرادشتيون من أبناء مدرسة جند يسابور .

٤ - الحرانيون .

٥ - اليهود .

ولم يكن العلماء المسلمون يعتمدون على النصوص المترجمة، بل كانوا يقوّمونها ويعلقون عليها، ويضيفون لها. وقد ساعدت حرية الفكر والتسامح عند المسلمين على ازدهار حركة النقل، كما ساعد تشجيع الخلفاء والأمراء على هذه النهضة الثقافية .

ويقترح المؤلف عددًا من التوصيات لنهضة ثقافية عربية إسلامية حديثة منها : إنشاء ديوان للترجمة ودعمه

بموازنة ضخمة تلبيّ غاياته، وحسن اختيار الكتب المترجمة، وتقديمها للقراء بأسعار مغرية وطباعة أنيقة، وإنشاء فروع لهذا الديوان في العواصم والمدن الكبرى، وتشجيع الموسرين على رعاية حركة الترجمة وإنشاء معاهد مستقلة لإعداد التراجمة في كليات الآداب .

ويستعرض المؤلف في الفصل الثالث «لقطات علمية من تاريخ الطب العربي» بعض الإنجازات الطبية في التراث العربي الإسلامي التي قامت على المشاهدة الحسية منهجًا، دون تحيز أو سعي لتمجيد لا يستند إلى الحقائق الموضوعية .

كان الطب عند العرب وقائياً يستهدف حفظ الصحة وعلاجياً يرمي إلى شفاء المرضى، وقد توصل العرب إلى كثير من أسس الطب الوقائي بدراسة الجسم ووظائف أعضائه والكشف عن أسباب المرض وأعراضه، وعنوا بالوسائل التي تكفل حفظ الصحة وعدم الوقوع في المرض من حيث نظافة الماء والهواء والمسكن وسلامة النفس من الهيجانات والانفعالات، فكتب «الرازي» عن منافع الأغذية، وأفرد تلميذه «علي بن عباس» واحداً وثلاثين فصلاً في علم الصحة، فتناول الرياضة والاستحمام والغذاء والشراب والنوم ، وحذر من الأمراض الوبائية، وأضاف ابن سينا في قانونه شروط اختيار المرضعة، والوقاية من حرارة الشمس، كما تعرض ابن خلدون في مقدمته لبعض الشروط المتعلقة بحفظ الصحة مما يتصل بعلم التغذية، ونقاء الهواء، وعلاقة الصحة بحياة السكان في المدن والأرياف .

وفي مجال الطب العلاجي ، اهتم العرب بتشخيص المرض ومعرفة أعراضه وطرق علاجه واستجواب المريض وفحص البول وجسّ النبض، وساعدهم التشخيص على التفريق بين الأمراض المتشابهة الأعراض، ففرّق «الرازي» بين الجدري والحصبة، وميّز «ابن سينا» بين الالتهاب الرئوي والتهاب السحايا الحاد .

وفي طب العيون تناول الطب العلاجي أمراض العيون .. كما تناول العرب الأمراض النسائية، وأمراض الأطفال والأمراض العصبية والنفسية، ومن أهم مؤلفاتهم في الطب التخصصي كتاب «دغل العين» ليوحنا ابن ماسويه الدمشقي، وكتاب « العشر مقالات في العين» لحنين بن إسحق، و «تذكرة الكحالين» لعلي بن عيسى، و«المنتخب في علاج أمراض العين» لعمار بن علي، و«الكافي في الكحل» لخليفة بن أبي المحاسن، ونلاحظ أن بعض هذه المؤلفات مزوّد بالرسوم الإيضاحية، وبرع «ابن سينا وابن زهر وعلي بن عباس» في معالجة أمراض النساء والتأليف فيها .

وامتد الطب العلاجي إلى الأمراض المعدية أو السارية، فتحدث «ابن سينا» عن السل الرئوي والجمرة الخبيثة « النار المقدسة» . واستخدم «ابن التميمي» التدخين لتطهير الهواء من الأوبئة، وكان الطاعون موضع دراسات علمية عندهم . أما التشريح فقد وقف الشرع حائلاً دون تشريح الجثث البشرية، فاكتفوا بتشريح جثث القردة وغيرها من الحيوان، وعرف بذلك ابن ماسويه والجاحظ في دراسة الحيوان، على أن أبرز المشتغلين بالتشريح هو «أبو القاسم الزهراوي» الذي أوصى بفتح الخراجات واستئصال السرطان، والعلاج بالكي، ومارس ربط الشرايين في جراحاته، وتفتيت الحصاة في المثانة .

وفي علم النبات برز «ابن البيطار» كبير العشابين في بلاط «الكامل الأيوبي» و «رشيد الدين الصوري» . وفي الكيمياء يُعد «جابر بن حيان» مؤسس علم الكيمياء، ويرجع الفضل للعرب في استحضار كثير من المركبات الكيماوية كحامض النتريك وزيت الزاج والنشادر، وبرع علماء العرب في علم تركيب الأدوية «الصيدلة في عصرنا» وهم أول من أنشأ صناعة العقاقير بالاستناد إلى التجربة، وبرز منهم فيها«ابن سهل وابن التلميذ أمين الدولة» و «أبو جعفر أحمد الغافقي، ووضع «ابن

البيطار» أكبر موسوعة في هذا المجال .

وأقيمت المشافي «البيمارستانات» والمعاهد لتعليم الطب، وأفردت دور لعلاج مرضى الجذام والأمراض النفسية والعقلية، كما أقام العرب مشافي متنقلة يتم نقلها إلى مواطن انتشار المرض أو الوباء .

وكان للمشافي نظامها الذي يشبه نظامها الحالي، من وجود أقسام للجنسين، ووجبات للمرضى، وصيدليات تابعة لها، وجولات منتظمة من الأطباء على المرضى . ولم يشترط في الفترة الأولى حيازة الطبيب شهادة في الطب، إلا أنهم أخضعوا زمان المقتدر لفحص يثبت أهليتهم حرصًا على سلامة المرضى، ويشرف على امتحانهم كبير الأطباء «سنان بن قرة»، ويمنح الناجح منهم إجازة ، ويحرم على الطبيب إفشاء أسرار مهنته أو تقديم السم لعدو أو إجهاض امرأة، وعدت هذه المبادئ أسسًا ثابتة لأخلاقية المهنة .. وألفت في آداب الطب مؤلفات منها : المدخل لابن الحاج، ومعالم القرى في أحكام الحسبة لابن الأخوة .

ويستعرض المؤلف تطور تاريخ الطب عند العرب المسلمين من الجاهلية حتى العصر العباسي، ويقدم نماذج من الإنجازات الطبية لديهم، ومنها استخدام الرازي أمعاء الحيوان في التقطيب، والفتائل وخيوط الجراحة، واستخدام المحاجم في علاج داء السكتة وتشخيص مرض الطاعون واستخدام الزئبق في علاج الأمراض الجلدية، والاهتمام بالحالة النفسية للمريض، واستخدام الحزام، والنظر إلى الحمى على أنها عرض لأمراض، واكتشاف البول السكري، واستحضار حوامض كيماوية لا تزال مستعملة إلى يومنا .

أما ابن سينا الملقب بأبقراط العرب، فبرع بملاحظاته السريرية فوصف تقيح التجويف البلوري، وفرّق بين المغص المعوي والمغص الكلوي، وبين شلل الوجه الناجم عن سبب مركزي في الدماغ، والناجم عن سبب محلي، وحدد مختلف أنواع اليرقانات ، ومعالجة القناة الدمعية، وتشخيص الإنكلستوما، والرهقان ، ومعالجة الديدان المعوية. واخترع الزهراوي منظار المهبل، وبرع في جراحة فتح القصبة والكسور، ويعود الفضل في اكتشاف الدورة الدموية إلى عالمين عربيين هما : [علي بن عباس، وابن النفيس] ومارس هذا الأخير التشريح، وكاد أن يتوصل إلى علم الباثولوجيا وتوصل ابن زهر إلى تجربة يسّرت تعاطي المسهلات .

وهكذا بدا الطب العربي علميًا في العصر العباسي بفضل إسهام هؤلاء النوابغ الذين عزلوا علم الطب عن الفلسفة والمعتقدات وأخضعوه للملاحظة الحسّية والتجربة، فاستقى أصوله من البيئة العربية الإسلامية، ونما في ظلال ثقافتها .

ويرجع للعرب فضل نقل الحضارة إلى أوربا عن طريق الاحتكاك بالشرق في الحروب الصليبية، وبفضل حركة الترجمة التي نشأت في صقلية والتماس الحضاري في الأندلس . على أن أبرز هذه الطرق تأثيرًا كان حركة الترجمة في صقلية التي استولى عليها العرب عام ٨٣٧م، ثم انحسر سلطانهم عنها، وكان ملكها «روجر الثاني» محبًا للعلوم متسامحًا في الدين، فرعى العلم والعلماء، وقرّب أعلامه من العرب ومنهم : الشريف الإدريسي، واهتم ابنه «فريدريك» بالطب فأنشأ مدرسة «سالرنو» الطبية، واعتمد مدرسوها المراجع الطبية العربية، وقام «قسطنطين» الإفريقي وهو تاجر تونسي استقر في صقلية، واعتنق النصرانية بترجمة مخطوطات الطب عن العربية، وتسلل بعض خريجي هذه المدرسة إلى فرنسا، فدرّسوا الطب في «مونبليه» و «باروا» .

أما في الأندلس فقد فرضت اللغة العربية نفسها لغة للعلم والثقافة بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢م، وقام البابا «سلفستر الثاني» الذي أقام ثلاث سنوات في إسبانيا، واستهوته علوم العرب برحلة إلى «قرطبة» كما أقام رئيس أساقفة طليطلة «ريموند» ديوانًا للترجمة عن

العربية، وكان أشهر تراجمة «طليطلة» «جيرار الكريموني» فنقلت كتب أعلام الطب العربي كابن ماسويه والرازي وابن سينا . وأسس أطباء العرب النازحون من الأندلس أول مدرسة للطب في «مونبليه» وأدخلت كتب الطب العربي في مقررات هذه المدرسة . وهكذا كان للعرب فضل تأسيس نهضة أوربية، وقيام حركة الإحياء على أسس من العلم العربي والثقافة العربية .

وفي الفصل الرابع يتناول المؤلف «دور العقل في الحياة الفكرية عند العرب» فيشير إلى الاضطهاد منذ القدم تحت شعارات متنوعة منها : الزندقة والمروق على الدين وإحداث البدع زمن المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم، وشارك في مهاجمة حرية الفكر نفر من المنافحين والمدافعين عن الدين كالغزالي وابن حزم، وتعرض «ابن تيمية» للاضطهاد الفكري بسبب نزعته العقلية كما تعرض الشيخ محمد عبده في العصر الحديث لحملة قاسية بسبب تحكيمه العقل في فتاواه الدينية، ونلاحظ أن جامعاتنا اليوم تقيم معارفها على أساس من التوفيق بين الدين والعقل خشية أن تثير الرأي العام المتشبع بالموروث، فلا تجرؤ أن تقيم فكرًا متحررًا أو تقود حرية الفكر إلى حيث قادتها أوربا في نهضتها الحالية، إذ فصلت بين الدين والدولة، وطهرت العقل الغربي من سيطرة الأعراف والموروثات التي تتنافى والعقل .

في رحاب التصوف الإسلامي :

وفي الفصل الخامس .. يدرس المؤلف ظاهرة التصوف الإسلامي الذي بدا عكوفًا على العبادة وإعراضًا عن زخرف الدنيا وضبط جماح النفس عن الهوى، فعرفت الحياة الإسلامية ظاهرة النسك المستمدة من مبادئ الدين، ثم تحوّل التصوف إلى نهج فكري بعد ظهور علم الكلام، وأصبح التصوف معرفة يقينية بالخالق تستهدف تصفية النفس والمكاشفة، لكنه ظلّ يلتمس مثله الأعلى من الدين ويستمد مسوغاته من الحب الإلهي، غير أن المتأخرين من المتصوفين بالغوا في مذاهبهم الصوفية في الكشف والحلول، فتصدى لهم الفقهاء، ويبدو أن الفلسفة الإسلامية قد سادتها نزعة صوفية ترمي إلى الحدّ من شهوات النفس منذ زمن «الفارابي»، وتنطلق فيها من نزعة عقلية، وتسلل تصوف الفارابي إلى أعماق الفلسفة كما نجده لدى «ابن سينا وابن باجه وابن طفيل وابن رشد» وتعدّ ذلك إلى تأسيس مدرسة الإشراقيين في فارس التي أسسها السهروردي وابن سبعين .

وللتصوف الإسلامي خصائص منها :

١ - الترقي الخلقي الذي يقوم على الرياضة الروحية.

٢ - اللجوء إلى الكشف عن وسيلة لإدراك الحقائق الخفية وراء المحسوسات .

٣ - بلوغ السعادة بقهر النفس والتحرر من الهوى .

٤ - استخدام الرمز للتعبير عن معاني الوجد والكشف والحلول لعجز اللغة عن التعبير عنها . وهو فلسفة تهدف إلى الترقي بالنفس الإنسانية إلى مراتب الكمال كما يقول «التفتازاني» .

ومن أعلام التصوف الإسلامي «الحسن البصري ورابعة العدوية» التي أضافت إلى التأمل الصوفي نزعة حب الخالق وطاعته دون غرض ذاتي . و «ذو النون المصري» و«أبو يزيد البسطامي» صاحب نظرية الاتحاد التي قادت إلى فكرة اتحاد الناسوت باللاهوت، و«الحلاج» صاحب نظرية الحلول الإلهي في المخلوقات، و «الغزالي» المتصوف الذي استند إلى تعاليم الكتاب والسنة في البحث عن المعرفة اليقينية والكشف بتصفية النفس من أدرانها، و«ابن عربي» صاحب مذهب وحدة الوجود، و«ابن سبعين» صاحب مذهب الوحدة المطلقة، و«ابن الفارض» في وحدته السهودية، و«فريد الدين العطار» و «جلال الدين الرومي» من الفرس .

واختلفت طرائق هؤلاء المتصوفة في مجاهدة النفس، وأساليب تعبيرهم عنها حتى انغلقت بعض تعاليمهم عليهم وحدهم واختلط كلامهم بالعقائد .

ويرى المتصوفة أن الوجدان أو العيان هو الطريق اليقيني للمعرفة، ويقابل العقل في المعرفة العلمية . ورأى «الغزالي» في هذا الكشف منهجًا للمعرفة يفوق المنهج العقلي، لأن أحكام العقل ظنية غير يقينية في رأيه، قابلة للشك . أما الحدس الباطني فهو الوسيلة الوحيدة للمعرفة وهو أساس إيمان العارفين والشاهد بنور اليقين .

ويردّ الدارسون التصوف الإسلامي إلى أصول الدين الإسلامي نفسه في حين يرده بعضهم إلى مؤثرات هندية أو يونانية، والأرجح أنه في منطلقه ينبع من تعاليم الإسلام، ثم دخلته عناصر فلسفية أجنبية وسّعت أفقه، ومهما يكن من أمر فإن المتصوفة ظلوا مقبولين اجتماعياً لو لم يتدخل بعضهم في السياسة ويثيروا عليهم نقمة السلطة، فقد دعا «الحلاج والسهروردي» إلى مذهب القرامطة، وكانت دعوتهما السبب الرئيس في قتلهما .

دور العرب في تكوين الفكر الأوربي :

في الفصل السادس، يتحدث المؤلف عن دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، بعدما بلغ التراث العربي أوج ازدهاره في العصر العباسي، وكانت له الصدارة في العالم كله ، في حين كانت أوربا في حالة بائسة من الجهل والتخلف، فمنذ سقوط الدولة الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس وهي تغط بسبات عميق من الظلام، ولم تنهض إلا في بداية عصر النهضة .

كانت الأمية متفشية والعلم مقصوراً على الرهبان في الأديرة الذين أسهموا في إحياء التراثين اليوناني والروماني، بينما كانت مكتبة دار الحكمة ببغداد تضم زمن الفاطميين مئة ألف مجلد .. كما حوت مكتبة قرطبة مئتي ألف مجلد .. وكانت فهارسها تستغرق أربعاً وأربعين كراسة .

ثم انتقلت الثقافة العربية عن طريق صقلية إلى الغرب، وازدهرت فيها في عهد الملك النورماندي «فريدريك الثاني» .. وفي عهد خلفه «غليوم الأول بن روجر» ازدهرت حركة الترجمة من العرب، وشارك فيها «جيرار الكرموني».

وكان من أشهر أعلام العرب في الأندلس : ابن مسرة القرطبي وأبو القاسم الفلكي والزهراوي وابن حزم وابن طفيل وابن باجه وابن رشد وابن ميمون وابن زهر، واستقدم مطران طليطلة «ريموند» مختلف العلماء إلى مدينته، وأنشأ بها ديوانًا للترجمة عن العربية، فترجمت مؤلفات ابن سينا والخوارزمي التي سميت العمليات الحسابية باسمه «الخوارزميات» .

وهكذا كان التراث العربي أساس نهضة الغرب، وكان للحروب الصليبية إسهام في نقل العلوم العربية الإسلامية إلى الغرب، وترك الأدب العربي بصماته على الآداب الغربية، ولا سيما شعراء فرنسا الجنوبية الذين كانوا يعرفون اللغة العربية . وأثر الغناء العربي بمادته الشعرية وإيقاعه الموسيقي في شعراء «الترو بادور» . ومن الثابت أن «دانتي» استلهم «الكوميديا الإلهية» من مصادر إسلامية كالمعراج ورسالة الغفران للمعري، وبعض كتب ابن عربي وكان للموشحات دور في نشأة شعر الغزل .. كما أثرت قصص ألف ليلة وليلة في نشأة القصة الأوربية، وقصة حي ابن يقظان الفلسفية في مغامرات «روبنس كروزو» .

نلاحظ من ذلك كله أنه كان للعرب إسهام بارز في تكوين التفكير العلمي لدى الغربيين منهجًا وأساليب بحث ومعارف نظرية وتجارب تطبيقية في شتى العلوم، إضافة إلى إسهامهم في نقل التراث اليوناني والهندي والفارسي والحفاظ عليه، فكان دورهم منطلق النور الذي عمّ أوربا بعد الظلام وهو دور لايستطيع الغرب أن يجحده أو ينكره .

ويمتاز كتاب «في تراثنا العربي الإسلامي» لتوفيق الطويل بالموضوعية، فهو لم يصدر عن هوى قومي أو ديني، وإنما يثبت مكانة العرب العلمية بالحقائق والوقائع، فيقدم منها ما تمت دراسته وإقراره، ولعلّ الزمن سيكشف حقائق علمية أخرى عن فضل العرب على الغرب، فالنور لايخفى ولو تعاونت على طمسه قوى التعصب والهوى .